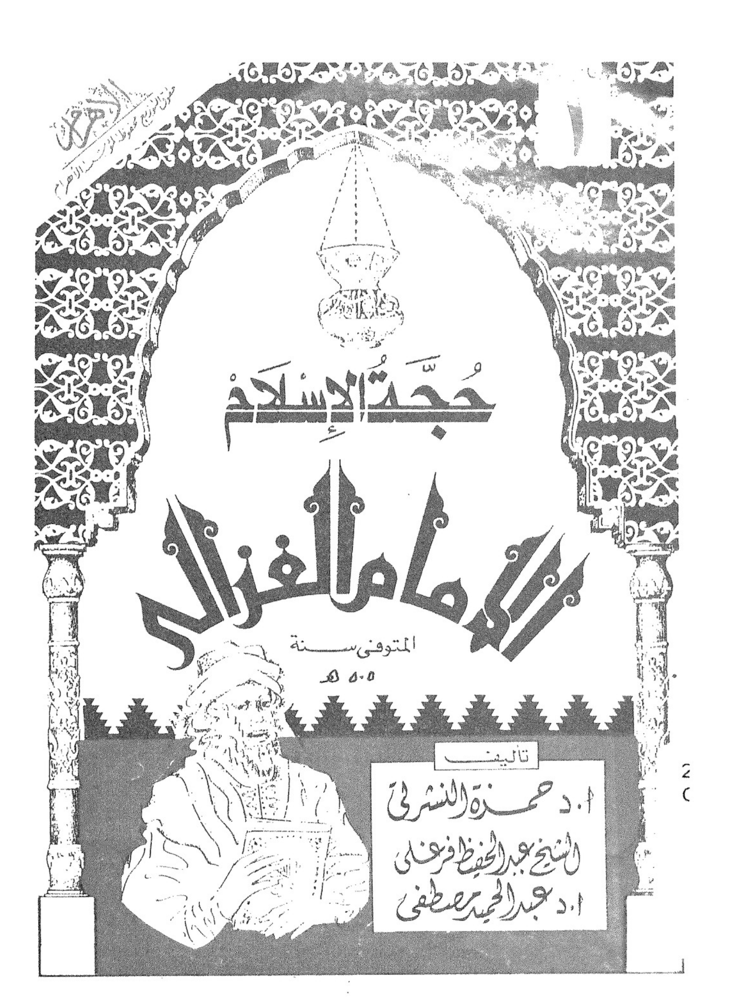

حجة الإسلام
الإمام الغزالي
المتوفى سنة
٥٠٥ هـ
تأليف
أ.د حمزة النشرتي
الشيخ عبد الحفيظ فرغلي
أ.د عبد الحميد مصطفى

أبو حامد الغزالى
حجة الإسلام

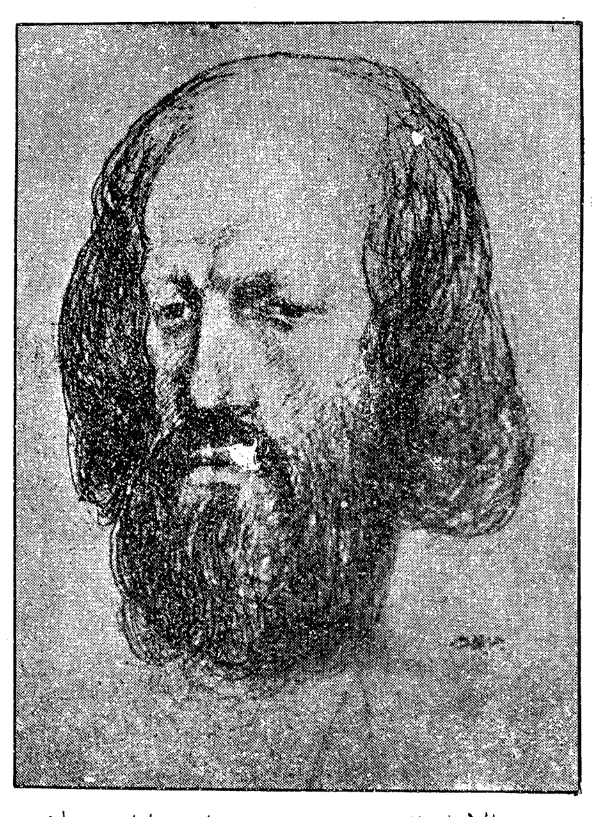
٤٥٠ ــ ٥٠٥ هـ

مجدد القرن الخامس الهجرى

تأليف

أ.د حمزة النشرتى

الشيخ/ عبد الحفيظ فرغلى أ.د عبد الحميد مصطفى



الإمام الغزالي كما تخيله جبران خليل جبران

بسم الله الرحمن الرحيم

الإهـــداء

إلى عشاق العلم والمعرفة

إلى طلاب المثل العليا

إلى الذين يرجون بما حصلوا من علم ، وبلغوا من جاه ، وجمعوا من ثروة وجه الله ونعيم الآخرة، فآثروا الباقى على الفانى والآجل على العاجل ..

إلى علماء الزمان وقربى الأجيال . نذكرهم بما قدم الغزالى لنفسه وأمته وتلاميذه من مناهج ودروس وقيم ومبادىء ستظل مضيئة عبر التاريخ.

﴿والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله لمع المحسنين﴾

قرآن كريم ـ العنكبوت : ٦٩

﴿تعلموا من العلم ما شئتم ، فوالله لا تؤجروا بجمع العلم حتى تعملوا﴾

أخرجه السيوطى فى الجامع الصغير عن أنس

﴿لا يعرف الغزالى وفضله إلا من بلغ ـ أو كاد يبلغ ـ الكمال فى عقله﴾

محمد بن يحيى النيسابورى . تلميذ الغزالى .

تَرَبَّع فى القلوب ولا تُبالى ... فقد شُغِفَتْ بحبك يا غزالى

ملكتَ زمامهَا شرقاً وغرباً ... فلم تأنس لغيرك فى مجالِ

وصُغت لها من « الإحياء » نورا ... وأنقذت العقول من الضلالِ

وفى هذين للصادى رواءٌ ... ألذ لها من العذْب الزلال

عبد الحفيظ فرغلى

تقديم :

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، سيدنا محمد ابن عبد الله خاتم الأنبياء والمرسلين ، وعلى آله وصحبه أجمعين .. وبعد

فقد خار الله لى أن أقدم فى هذه السلسلة ـ سلسلة شخصيات إسلامية ـ التى تقبلها القراء الكرام بقبول حسن . شخصية جديرة بالتقديم هى شخصية الإمام العظيم حجة الإسلام الغزالى..

وعلى الرغم مما أشعر به من قصور نحو التعرض بالحديث حول هذه الشخصية السامقة المحلقة ، التى دارت حولها دراسات مستفيضة فى الشرق والغرب ، وظفر كتاب ودارسون لها بإجازات علمية فائقة ، على الرغم من ذلك فقد أطمعنى فى الكتابة عنها رغبتى أولا فى الإفادة منها علما وعملا ، ورجائى أن أقدم لأجيال أمتنا الغارقين إلى آذانهم فى مطامع الدنيا وحطامها الزائل نموذجا فريدا فى اليقظة والتنبه لما هو أهم وأولى .. وفى إيثار الآخرة على الأولى ، وفى التطلع إلى المثل الأعلى فى المعرفة ، وهو التعرف على واجب الوجود ، ولن يكون التعرف عليه إلا بمجاهدة نفسية شاقة ، يأتى فى مقدمتها قطع العلائق ومحاربة العوائق .

لم يكن الغزالى مجرد شخص عادى ، ولكنه كان عالما وصل بعلمه إلى أعلى درجة بين العلماء وكان طموحا فى علمه يطلبه فى كل مكان ، ويرحل إليه متكبدا عناء السفر ومشاق الرحلات ، ولم يقف فى طلبه عند حد ، بل تنوعت معارفه وإتجاهاته فأصبح حجة فى كل فن وعلما فى كل فرع من فروع المعرفة .. ولم يكتف فى تحصيله بأدنى شىء ، ولكنه كان يغوص فى أعماق ما يطلب حتى يستخرج مما يطلبه جواهر قيمة ولآلىء فريدة .. سالكا فى ذلك طريق الملاحظة والتجربة والتأمل الباطنى والاختبار الاجتماعى .. وقدم نتائج معرفته لأمته فى رسائل وكتب ، مازالت مصابيح هداية ومنارات تعليم .

واعتنى الغزالى فى تجربته العلمية والدينية بالجانب الخلقى ، فقد رأى أن العلم بدون أخلاق لا قيمة له ، وأدرك كذلك أن الدين ذوق وتجربة من جانب القلب والروح ، وليس مجرد أحكام شرعية ، أو عقائد تلقن ، بل هو تجربة يحسها المتدين بروحه إحساسا حيا ويمارسها عمليا وأن بين الدين والأخلاق علاقة قوية متينة ، فالأخلاق هى روح الدين وهى دعامة لبناء مجتمع فاضل ، وليس من المستحيل على العالم أو المتعلم أو المتدين أن يعدل أخلاقه ، فالمجاهدة والرياضة النفسية فى اكتساب الصفات الحميدة تأتى بآثار طيبة ونتائج حميدة .

ولم يكن كلام الغزالى ذلك خاليا من التطبيق العملى ، فقد زهد فى المناصب العليا التى تولاها ، وسئم إشارة البنان التى كانت تتجه إليه فى كل مكان وقاوم نزعة التطلع التى تراود نفس كل نابه ، وتستولى على لب كل متصدر فى كل ميدان ..

وانزوى بعيدا عن الزحام يقوم بواجبه التعليمى فى تواضع وانكسار وكانت هذه الفترة التى ابتعد فيها عن عالم الشهرة وبعد الصيت هى أزهى أوقات عمره علما وعملا ، فقد أنتج فيها خلاصة علمية وافية أضاءت الزمن فى كتاب يكاد يكون معجزا هو كتاب إحياء علوم الدين ، الذى قال فيه بعض العارفين : من لم يقرأ كتاب الإحياء فليس من الأحياء .

لقد رجوت بتقديم هذه الشخصية فى سلسلتنا هذه أن يتنبه المتعلمون بأن الدنيا ليست غاية المطاف ، وأن جمع المال من وراء التعلم ليس هو الهدف الأسمى .. إن العلم فى حد ذاته هو الهدف الذى يسمو على كل هدف وأن يطلب به معرفة الله التى هى أسمى هدف فى الوجود ، ومن أجلها خلقنا الله .

لقد تنبه إلى هذا المعنى الغزالى ــ رحمه الله ، فأعزه الله وكرمه ورفع درجته ، وجعل حكام عصره يحنون قامتهم له ، ويتواضعون فى حضرته . وكأن الغزالى نصب عينيه قول القاضى أبى الحسن على بن عبد العزيز

الجرجانى المتوفى سنة ست وستين وثلثمائة من الهجرة حين قال :

ولم أقض حق العلم إن كان كلما بدا طمعٌ صيرته لى سلما

ولم أتبذل فى خدمة العلم مهجتى لأخدم من لاقيت لكن لأُخْدَمَا

أأشقى به غرسا وأجنيه ذلة ؟ إذن فابتياع الجهل قد كان أحزما

ولو أن أهل العلم صانوه صانهم ولو عظموه فى النفوس تعظما

مع فارق واضح هو أن الجرجانى كان يطلب العلم ليُخدم أما الغزالى فقد طلبه ليَعْرِف . وتواضعه مع علمه ، هو الذى أوصله إلى الرفعة والعزة التى لم يهدف لهما بل نأى بجانبه عنهما فازداد بذلك رفعة وقدرا .

إن سيرة الإمام الغزالى متشعبة وقد اختصمت أقلام فيها . انتصر منها الذين عرفوا قدره . وأدركوا قصده ، وبقى الغزالى حجة للإسلام يقدم للأجيال بما تركه من ثروة علمية أنوارا كاشفة تهدى الحائر وترشد الضال وتزيد المهتدين هدى وتثبت أقدام المستنيرين .

ولن أستطيع أن أوافى هذه الشخصية حقها كما يجب ، ولكن حسبى أن أهتدى بضوء من سبقونى فى الحديث عنها مكتفيا من ذلك بالقلادة التى تحيط بالعنق .

والله وحده المسئول بأن يعين ويوفق ، ويجعل هذا العمل خالصا لوجهه الكريم نافعا للمسلمين ، وهو حسبنا ونعم الوكيل ،

عبد الحفيظ فرغلى على القرنى .

كلمة الإمام الأكبر

فضيلة المغفور له الشيخ محمد مصطفى المراغى

شيخ الجامع الأزهر الأسبق عن الغزالى

كان الإمام الأكبر فضيلة الشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الجامع الأزهر فى سنة ١٣٥٥ هـ ـ ١٩٣٦ م ـ رحمه الله تعالى ـ قد قدم لكتاب عن الغزالى ألفه الأستاذ الدكتور أحمد فريد الرفاعى الذى كان يشغل منصب مدير إدارة الصحافة والنشر والثقافة المصرية فى ذلك الوقت ...

وقد رأيت أن أصدر كتابى هذا بما كتبه فضيلة الشيخ عن الإمام الغزالى ـ رضى الله عنه ـ نظرا لأهمية ما قاله مما يلقى الضوء على هذه الشخصية العظيمة :

قال الشيخ ـ رحمه الله ـ :

إذا ذكرت أسماء العلماء اتجه الفكر إلى ما امتاز به من فروع العلم ، وشعب المعرفة ، فإذا ذكر ابن سينا ، أو الفارابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان من فلاسفة الإسلام ، وإذا ذكر ابن العربى خطر بالبال رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطرها ، وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال .

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى ، ولم يخطر بالبال رجل واحد ، بل خطر بالبال رجال متعددون لكل واحد قدره وقيمته .

يخطر بالبال الغزالى الأصولى ، الحاذق الماهر ، والغزالى الفقيه الحر ، والغزالى المتكلم إمام السنة ، وحامى حماها ، والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب ، والغزالى الفيلسوف أو الذى ناهض الفلسفة ، وكشف عما فيها من زخرف وزيف ، والغزالى المربى ، والغزالى الصوفى الزاهد . . .

وإن شئت فقل : إنه يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره .

رجل متعطش إلى كل شيء ، نَهِمٌ إلى جميع فروع المعرفة ، وليس أدل على ذلك مما قاله الغزالى عن نفسه فى كتاب المنقذ من الضلال : « ولم أزل فى عنفوان شبابى منذ راهقت البلوغ ، وقد أنافت السن الآن على الخمسين ، أقتحم لجة هذا البحر العميق وأخوض غمرته خوض الجسور ، لا خوض الجبان الحذور، وأتوغل فى كل مظلمة ، وأتهجم على كل مشكلة ، وأقتحم على كل ورطة ، وأتفحص عقيدة كل فرقة ، وأكشف أسرار مذهب كل طائفة ، لأميز بين محق ومبطل ــ ومتسنن ومبتدع ، لا أغادر باطنيا إلا وأحب أن أطلع على بطانيته، ولا ظاهريا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظهارته ، ولا فلسفيا إلا وأقصد الوقوف على كنه فلسفته ، ولا متكلما إلا وأجتهد فى الاطلاع على غاية كلامه ومحاولته ، ولا صوفيا إلا وأحرص على العثور على سر صفوته ، ولا متعبدا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته ، ولا زنديقا إلا وأتجسس وراءه للتنبه إلى أسباب جرأته فى تعطيله وزندقته »

ومع أن الفلسفة ليست هى الفرع البارز عند الغزالى من فروع المعرفة فقد قيل عنه من أساطينها الغربيين : « لم تنتج الفلسفة العربية مفكرا مبتدعا كالغزالى» وقيل عنه : « إن أمثال الغزالى معضلة فى نظر الفلسفة ، فأشخاصهم حقائق روحية تحتاج إلى توضيح »

ويُعَدُّ الغزالى بحق إمام أهل البيان فى الأسلوب العلمى ، والأسلوب الاجتماعى ، وقد حرص أشد الحرص على إفهام القارئين وإقناعهم بما يريد إبلاغهم إياه ، فجانب التعقيد والاصطلاحات الفنية ، وأكثر من ضرب الأمثال فى تقريب المعانى الدقيقة ، كما يعد بحق إمام العلماء الذين حاولوا تقريب الفلسفة ومدركات الصوفية إلى عقائد الدين وقواعده ..»

ملامح العصر

جاء الإمام الغزالى فى أواخر العصر العباسى . .

وبالتحديد فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى ، فقد ولد سنة ٤٥٠ هـ وتوفى سنة ٥٠٥ هـ ..

نصف قرن أو يزيد عاشه الغزالى ـ رحمه الله ـ ولكن بارك الله فيه فكان بمقدار قرون عدة مجتمعة .. وكم من ناس يدخلون الحياة ويخرجون منها ولا يحس بهم أحد .. ولكن رُبَّ رجلٍ واحد ما يكاد يضع يده على عتبة الحياة بعد أن يدرك ويميز حتى يلتفت إليه الكون ، ولا يغادر الحياة إلا وقد شغل بالحديث عنه الأذهان ، وترك أثره واضحا فيها تتوارثه الأجيال وينتفعون به على توالى الأيام والأزمان . من هؤلاء الغزالى ـ رحمه الله ـ .

والإنسان ابن بيئته كما يقول علماء الاجتماع . يتأثر بما حوله ويؤثر فيما حوله ، وإن كان الإمام الأكبر الشيخ عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ يرى أن المصلحين لا يتأثرون ببيئاتهم ، لأنهم جاءوا لإصلاحها ، وهو يخص فى ذلك أئمة الصوفية الذين كتب عنهم ، وعبارته التى قالها وردت فى حديثه عن شخصية القطب الكبير « أبى الحسن الشاذلى » حيث قال الشيخ عبد الحليم محمود: « لم أتحدث عن وسط أبى الحسن وبيئته الاجتماعية ، ولم أتحدث عن شيوخه الذين يكثر بعض المؤرخين من ذكرهم ، اللهم إلا عن الولى الكبير سيدى عبد السلام بن مشيش ، وإذا كنت لم أتحدث عن الوسط ولا عن الشيوخ فإنما فعلت ذلك متعمدا ، إننى فعلته عن مبدأ وعن رأى قد ترويت فيه وتأملته ..

« إننى أرى فى صراحة أن هؤلاء الذين يكتبون عن الصوفية فيتحدثون عن الوسط والبيئة وعن الأساتذة والشيوخ ؛ ليقولوا بعد ذلك : إن الصوفى تأثر وقلد وأخذ ، وأن فكرته هذه يدين فيها لفلان ، وفكرته تلك يدين فيها للوسط الفلانى .إن هؤلاء الذين يدينون بالآلية فى الفكر الصوفى ، أو بأن الصوفى مرآة

تعكس صور المجتمع والمربين ، وتنعكس فيها أفكار المجتمع والشيوخ ، ويأخذون في تحليل آراء الصوفي وتفصيلها وتشريحها من أجل أن يعزوا كل فكرة إلى مصدر يختلف عن مصدر الفكرة الأخرى للصوفي نفسه . إن هؤلاء الذين يصنعون ذلك مخطئون ..

« فالصوفي لا يكون صوفيا بالقراءة أو الدراسة أو البحث ، حتى ولو كانت هذه القراءة والدراسة في الكتب الصوفية نفسها وفي المجال الصوفي خاصة ، وقد يكون الشخص من أعلم الناس بهذه الكتب : درسها دراسة باحث متأمل ، وعرف قديمها وحديثها ، وميز بين الزائف منها والصحيح وصنفها زمنا ، وميزها أمكنة .. وهو مع ذلك لا سهم له في قليل ولا كثير في المجالات الصوفية .

« ولقد درس الإمام الغزالي كتب الصوفية المحققين ، درسها دراسة تعمق وتأمل ، لقد درس كتب الحارث المحاسبي ، وكتب أبي طالب المكي وماروى عن الجنيد وعن الشبلي وغيرهم ، ثم اعترف بأن ذلك لم يجعله صوفيا ، ولو اقتصر على القراءة مهما كانت عميقة لما كان له في التصوف نصيب ، ليس قراءة كتب الصوفية سلّما يرقى به الإنسان في معارج القدس ... » (1)

ويصح كلام الدكتور عبد الحليم محمود ـ رحمه الله ـ في مجال التصوف لأنه لابد فيه من الممارسة العملية والمجاهدة النفسية ، ولكن إذا ما اتجهنا إلى مختلف المعارف وجدنا أن البيئة لها أثر كبير في النشأة والتعلم .. وقلما يوجد متعلم في بيئة جاهلة ، أو ينبغ إنسان في مجتمع متخلف ، إلا إذا كان ذلك من قبيل الخوارق والمعجزات كما يحدث بالنسبة للأنبياء ـ عليهم السلام ـ إن هؤلاء وراءهم رب اصطفاهم ورباهم وعلمهم ليأخذوا بأيدي أممهم من الجهالة إلى العلم ـ ومن الضلالة إلى الهدى ، ومن الظلام إلى النور ..

---

(1) أبو الحسن الشاذلي د/ عبد الحليم محمود ص ٢٠٥ ، ص ٢٠٦ سلسلة أعلام العرب .

وينطبق كلام الدكتور عبد الحليم محمود على الإمام الغزالى فى جانب التصوف أما بالنسبة لتحصيل بقية المعارف فقد كان فيها نتاج بيئته التى ازدهرت بكل أنواع الفنون والمعرفة .

ولنلق نظرة إلى عصر الغزالى لنرى كيف كان عليه العصر عملا ومعرفة وتقدما ..

نشأ الغزالى فى ظل الفترة الثالثة من العصر العباسى .

وقد اصطلح المؤرخون على تقسيم العصر العباسى الذى بدأ بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ وانتهى بسقوطها سنة ٦٥٦ هـ . إلى ثلاثة أقسام .

القسم الأول يشمل فترة استقلال الخلفاء العباسيين بالحكم من بدء قيام الدولة حتى سنة ٣٣٤ هـ حيث استولى البويهيون على الخلافة العباسية .

القسم الثانى : من سنة ٣٣٤هـ حتى ٤٤٧هـ ، وهى فترة كانت الدولة تحكم بالبويهيين وهم فرس ، وإن كانت الخلافة العباسية باقية اسما لا فعلا .

القسم الثالث من سنة ٤٤٧هـ حتى نهاية الدولة العباسية وهى الفترة التى استولى فيها السلاجقة الأتراك على الحكم .. سنة ٦٥٦هـ أى كان السلاجقة هم الحكام فعلا ، والعباسيون هم الخلفاء اسما .

والسلاجقة أتراك لا يعرفون العربية ولا يجيدونها ، ولذلك تقلص من العربية جُل ظلها بالمشرق ، وطغت العجمى على الفصحى وماتت النعرة العربية إلا قليلا فتوانت الهمم وفترت العزائم . هذا بالنسبة للسان العربى والتحدث به .

أما عن العلوم فقد ازدهرت ازدهارا كبيرا .. وحدث إقبال شديد على العلم والتعلم ، وشجع على ذلك اهتمام الحكام والملوك به ..



نشأة الدولة السلجوقية :

ظهرت دولة السلاجقة فجأة ببلاد تركستان ، فاكتسحت الإمارات الصغيرة حتى وصلت إلى بغداد فاستولت عليها .

وجد السلاجقة هو سلجوق « أمير » تركى كان أولا فى خدمة بعض خانات تركستان ، وعظم شأنه بين جنوده ، وأطاعوه أعظم طاعة ، ثم علم باختلال أحوال الدولة العباسية فطمع فيها ، ولكنه رأى أنه لا يبلغ مراده إلا بالإسلام فأسلم هو وقبيلته ، ثم أقبل يغزو ويفتح حتى دانت له البلاد من أفغانستان إلى بحر الروم .. (١)

ويقال : إن مؤسس هذه الدولة هو ركن الدين أبو طالب المعروف «بطغرل بك » أسسها سنة ٤٢٩ هـ ومازالت تزحف حتى استولت على بغداد فى عهد الخليفة العباسى القائم بأمر الله ، واستمر السلاجقة يحكمون حوالى ثلاثة قرون حتى انتهت دولتهم على أيدى العثمانيين والمغول (٢) .

بينما يرى ابن تغرى بردى فى كتابه النجوم الزاهرة أن طغرل بك اسمه محمد بن ميكائيل بن سلجوق (٣) .

لقد أنشأ السلاجقة دولتهم أولا فى خراسان ، ثم زحفوا على الموصل ولكنهم فشلوا على الاستيلاء عليها ، ثم أصبهان التى جعلوها دار الملك سنة ٤٤٣هـ ، ثم زحفوا على العراق فاستولوا فى طريقهم على حلوان ثم استولوا على إقليم أذربيجان ثم استولوا على العراق بأكمله بدعوة من الخليفة الذى استنجد بهم سنة ٤٤٧هـ وعظمت مكانة « طغرل بك » السلجوقى عند الخليفة القائم بالله حتى لقد تزوج الخليفة أخته (٤) ، ثم تزوج طغرل بك من بنت الخليفة وأخذها معه إلى

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى ــ محمود مصطفى ص ١٩ .

(٢) الغزالى ــ أحمد فريد الرفاعى ج١ ص ٦٩ .

(٣) النجوم الزاهرة ج ٥ ص ٢٩ .

(٤) دول الإسلام للذهبى ج ١ ص ٤٤٨ .

الرى ولكنه مات فى سنة ٤٤٥هـ . واستمرت سلطنة السلاجقة بعد موت « طغرل بك » وأصبح السلطان بعده ، هو « إلب إرسلان » ابن أخيه ..

مزايا العهد السلجوقى :

ومن مزايا العهد السلجوقى انتعاش السنة بعد أن تضعضعت على يد الدولة البويهية بالعراق وفارس ، والدولة الفاطمية بمصر ، وكان البويهيون شيعة كالفاطميين .

لقد أحيا السلاجقة السنة ، وضربوا على أيدى المغالين من الشيعة .

وانتشرت المدارس فى هذا العصر ، فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى ، وأشهر مدرسة فى ذلك الوقت هى « المدرسة النظامية » التى أنشأها الوزير نظام الملك ، وزير ملك شاه السلجوقى ، وكان التعليم فيها بالمجان ، وفرض لطلابها الأرزاق وكان لها شأن كبير فى العالم الإسلامى . وتخرج فيها كثير من أعيان العلماء ، كما كان يدرس فيها أئمة العلماء من أمثال : أبى إسحاق الشيرازى المتوفى سنة ٤٧٦هـ ، والإمام أبى نصر الصباغ البغدادى المتوفى سنة ٤٧٧هـ والجوينى إمام الحرمين ، شيخ الغزالى ، وسيأتى الحديث عنه ، والغزالى نفسه . وأبى زكريا التبريزى إمام اللغة المتوفى سنة ٥٠٢ هـ .

أما المتخرجون فيها من أ ئمة العلماء فلا يحصون كثرة ، يكفى أن نذكر منهم عماد الدين الأصفهانى وكمال الدين الأنبارى ..

أضواء حول الخلفاء والحكام فى عصر الغزالى

الخليفة العباسى (القائم بأمر الله)

هو أمير المؤمنين عبد الله بن أحمد بن إسحاق بن المقتدر بن المعتضد العباسى كان يلقب بالقائم بأمر الله كما كان أبوه يلقب بالقادر بالله وكان جده يلقب بالطائع لله .

تولى الخليفة القائم بالله الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٤٢٢هـ وكان أبوه صالحا ، دائم التهجد ، كثير الصدقات ، عالما له مؤلف فى السنة وذم المعتزلة والروافض، ولكثرة صدقاته لم يترك ميراثا يذكر .

بويع للقائم بالله عند موت والده ، وأول من بايعه الشريف المرتضى ، ثم الأمير حسن بن عيسى بن المقتدر ..

وكان الخليفة يستعين بحرس من الأتراك فطالب هؤلاء الحرس الخليفة برسم البيعة . وهو ما يسمى الآن بالبشارة فقال لهم القائم بأمر الله : إن أبى لم يخلف شيئا . وكان صادقا فى قوله ، لأن القادر بالله كان من أفقر الخلفاء . ثم صالحهم على ثلاثة آلاف دينار ، وكان له خان عرضه للبيع وفاء لذلك .

وحدثت فى عهده خطوب واضطرابات ، فقد ورث القائم بأمر الله عن أبيه ضعف هيبة الخلافة التى هانت حتى طمع فيها من لا أهل لها ، ويكفى أن البويهيين هم الذين كانوا يحكمون فعلا ، أما الخلفاء فكانوا لا كلمة لهم . لقد اكتفوا بضرب أسمائهم على السكة ، وبذكر أسمائهم فى الخطبة ..

ولكن البويهيين ضعفوا تحت عوامل مختلفة ، وأدى ذلك إلى أن استولى السلاجقة على بغداد ، وانطوى عرش البويهيين ، وتخلصت الخلافة العباسية من تبعية إلى تبعية أخرى ، وكان الخليفة القائم بأمر الله ، فى استعانته بالسلاجقة ليخلصوه من وطأة البويهيين كالمستجير من الرمضاء بالنار ...

وأستمرت خلافة القائم بالله العباسى حتى سنة ٤٦٧هـ حيث توفى فى شعبان من العام المذكور عن سبع وسبعين سنة . وقد استمرت خلافته ما يقرب من نصف قرن وكانت على التحديد خمسا وأربعين سنة من سنة ٤٢٢هـ حتى سنة ٤٦٧هـ .

ويحكى المؤرخون عنه أنه كان أهل دين وخير وعدل وشفقة ومعرفة بالأدب، وحكى القونوى فى تاريخه أنه كان يصوم أكثر الأيام ويقوم الليل ، وأنه فى آخر أيامه ما نام إلا على سجادته ولا تجرد من ثيابه لنوم (١)

ويعنى ذلك أنه كان على استعداد تام لما يعترضه من مهام .

وتولى بعده حفيده المقتدى بالله عبد الله بن محمد الذى ظل فى الخلافة حتى مات فى المحرم سنة ٤٨٧هـ ، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر ، ويقال : إنه مات مسموما على يد جارية أغراها السلطان ملك شاه بن ألب أرسلان السلجوقى .

ثم تولى الخلافة بعده ابنه المستظهر بالله أبو العباس أحمد وظل فى الخلافة حتى سنة ٥١٢هـ بعد موت الغزالى بسبعة أعوام .

طغرل بك السلجوقى :

قال ابن خلكان فى كتابه وفيات الأعيان : هو أبو طالب محمد بن ميكائيل بن سلجوق بن دقاق الملقب ركن الدين طغرلبك أول ملوك السلجوقية .

كان هؤلاء القوم قبل استيلائهم على الممالك يسكنون فيما وراء النهر فى موضع بينه وبين بخارى مسافة عشرين فرسخا .

وهم أتراك ، وكانوا عددا يجل عن الحصر والإحصاء ، وكانوا لا يدخلون تحت طاعة سلطان .

---

(١) دول الإسلام للذهبى ج١ ص ٢٧٥ .

وإذا قصدهم جمع لا طاقة لهم به دخلوا المفاوز وتحصنوا بالرمال ، ولا يصل إليهم أحد .. ولكن السلطان محمود بن سبكتكين سلطان خراسان وغزنة استطاع بذكائه وسعة حيلته أن يخضعهم ويدخلهم فى طاعته ولكن ذلك لم يدم ، فقد هلك محمود بن سبكتكين ، وانتهى الأمر إلى أن قويت شوكة هؤلاء السلجوقيين واستطاعوا أن يفرضوا سلطانهم على طوس ، والرى وخراسان ومازال يعظم أمرهم حتى زحفوا إلى بغداد كما ذكرنا من قبل . ولم يمنع ذلك الخليفة من أن يرسل إليهم قاضى القضاة الإمام الماوردى يأمرهم بالعدل فى الرعية والرفق بالمسلمين وبث الإحسان إليهم .

سبب زحفهم على بغداد

كان أبو الحارث أرسلان البساسيرى قد عظم أمره ببغداد ولم يبق لأحد معه حكم حتى لقد عزم على نهب الخلافة . وكان البساسيرى مواليا للخليفة الفاطمى فى مصر ، وعونا له فى بغداد . وكان طغرل بك فى ذلك الوقت قد عظم أمره ، واستفحل خطره وهو ليس شيعيا ، مما جعل الخليفة يأمن جانبه ، ويستعين به ضد هذا العدو الشيعى المتطرف فأرسل إليه الخليفة فى رمضان سنة ٤٤٧هـ يستنجد به ضد البساسيرى الذى هدد الخلافة وبذلك دخل طغرل بك بغداد دخولا شرعيا لا يجد معارضا له فى دخولها وطرد البساسيرى وأقام هو وأصبح السلطان الرسمى بإذن الخليفة .

ومن محاسن طغرل بك أنه كان حليما كريما محافظا على الصلوات الخمس فى أوقاتها جماعة ،وكان يصوم الاثنين والخميس ، ويكثر الصدقات ويبنى المساجد ، ويقول : أستحى من الله سبحانه وتعالى أن أبنى لى دارا ولا أبنى إلى جانبها مسجدا .

ومن محاسنه المسطورة أنه سير الشريف ناصر الدين بن إسماعيل رسولا إلى ملكة الروم وهى كافرة فاستأذنها فى الصلوات الخمس بجامع القسطنطينية

جماعة يوم الجمعة ، فأذنت له فى ذلك ، فصلى وخطب للإمام القائم .

وهذا الخبر يدل على علو قدره ، وكثرة نفوذه ومدى ماوصل إليه من طموح وقد بلغ من طموحه أنه طمع فى أن يتزوج من بنت الخليفة القائم بالله ، وقد عظم ذلك الأمر على الخليفة ولكنه أجاب إليه بعد تردد شديد ، وقد حفظ طغرل بك لها قدرها ، وقدم لها من الهدايا والألطاف ما يليق بمكانتها .

وتوفى فى رمضان سنة ٤٥٥هـ بالرى وعمره سبعون سنة .

معنى طغرل بك

وطغرل بك وتكتب أيضا طغرلبك ـ بضم الطاء وسكون الغين وضم الراء وسكون اللام وفتح الباء ، علم تركى مركب من كلمتين : طغرل وهو اسم طائر معروف عندهم ، وبه سمى الرجل ، وبك معناه الأمير كأنهم أرادوا الأمير طغرل.

ألب أرسلان

وهو ابن أخى طغرل بك ، تولى السلطنة بعد عمه سنة ٤٥٥ هـ فلم يكن لطغرل أولاد ذكور .

وهو أبو شجاع محمد بن داود بن ميكائيل بن سلجوق .

وكان طغرل بك عند موته قد أوصى لابن أخيه سليمان بن داود أخى إلب أرسلان ، ولكن أخاه ثار عليه واستطاع أن يستولى على السلطنة دونه .

وعظمت السلطنة فى عهد ألب أرسلان وتمكن من فتح كثير من البلاد ، ووصل عدد جنوده إلى مائتى ألف فارس أو يزيدون .

وتوفى ألب أرسلان سنة ٤٦٥هـ .

معنى ألب أرسلان

وألب ـ بفتح الهمزة ـ وسكون اللام معناها شجاع ، باللغة التركية وأرسلان معناها أسد ، فالتركيب معناه الأسد الشجاع ، لُقب بذلك .

ملكشاه بن ألب أرسلان

وتولى السلطنة بعده ابنه ملكشاه بوصيته من والده ، واستطاع أن يوطد السلطنة التى طمع فيها أعمامه ، واتسعت السلطنة في عهده واستقرت القواعد له حتى قيل : إنه ملك مالم يملكه أحد من ملوك الإسلام بعد الخلفاء المتقدمين ، وكان من أحسن الملوك سيرة حتى كان يلقب بالسلطان العادل ، وكان منصورا فى الحروب ، ومغرما بالتعمير ، فحفر كثيرا من الأنهار ، وعمر كثيرا من الأسوار حول البلدان وأنشأ فى المفاوز رباطات وقناطر ، وصنع بطريق مكة مصانع ، وأبطل المكوس والخفارات وكان مولعا بالصيد ، يقال : إنه خرج من الكوفة لتوديع الحاج فجاوز « العذيب » وشيعهم بالقرب من « الواقصة » وصاد فى طريقه وحشا كثيرا فبنى هناك منارة من حوافر الحمر الوحشية وقرون الظباء التى صادفها فى الطريق ، وما تزال المنارة باقية تسمى منارة القرون ، وذلك فى سنة ٤٨٠هـ وكانت المسالك فى عهده آمنة تسير القوافل مماوراء النهر إلى أقصى الشام وليس معها خفر .

وأخباره كثيرة حسنة ذكرها ابن خلكان فى وفيات الأعيان (١) وغيره وتوفى سنة ٥٨٥هـ ونقل إلى أصبهان حيث دفن فيها .

محمد بن ملكشاه

وتولى السلطنة بعده ابنه أبو شجاع محمد بن ملكشاه ، وكان في عهد الخليفة المستظهر بالله ، وقد عقد له الخليفة اللواء بيده ، وقلده سيفين ، وأعطاه خمسة

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص ٥٨٦ .

أفراس بمراكبها ، كما خلع على أخيه سنجر وخُطب لمحمد بن ملكشاه فى مسجد بغداد .

وكان الغزالى يتوجه إلى هذا السلطان بالنصح ، وقد كتب له كتابا يقول له فيه : « اعلم يا سلطان العالم أن بنى آدم طائفتان ، طائفة غفلاء نظروا إلى شاهد الدنيا ، وتمسكوا بتأميل العمر الطويل ، ولم يتذكروا فى اليقين الأخير ، وطائفة عقلاء جعلوا اليقين الأخير نصب أعينهم ، لينظروا إلى ماذا يكون مصيرهم ، وكيف يخرجون من الدنيا ويفارقونها ، وإيمانهم سالم ، وما الذى ينزل من الدنيا فى قبورهم ، وما الذى يتركون لأعدائهم من بعدهم ويبقى عليهم وباله ونكاله ».

توفى السلطان المذكور سنة ٥١٠هـ (١) .

نظام الملك

وكان نظام الملك هو الوزير المدبر لألب أرسلان وابنه ملكشاه وهو أبو على الحسن بن على بن إسحاق بن العباس الملقب نظام الملك قوام الدين الطوسى .

ولد بقرية قريبة من طوس واشتغل بالفقه والحديث ، واتصل بخدمة داود بن ميكائيل السلجوقى والد ألب أرسلان ، فظهر له منه النصح والمحبة ، فسلمه إلى ولده ألب أرسلان ، وقال له : اتخذه والدا ولاتخالفه فيما يشير به .

فلما تولى ألب أرسلان السلطنة وزرله ، ودبر له أمره أحسن التدبير ، وبقى فى خدمته عشر سنين .

ثم وزر لابنه من بعده ملكشاه ، وصار له الأمر كله فى عهده وليس للسلطان إلا التخت والصيد ، ووصل نظام الملك إلى درجة عالية ، حتى إنه كان يدخل على الخليفة المقتدى بالله ويأذن له بالجلوس بين يديه ، وقال له مرة : يا حسن، رضى الله عنك برضا أمير المؤمنين عنك .

---

(١) وفيات الأعيان ج٢ ص ٤٤٤ .

وكان مجلس نظام الملك عامرا بالفقهاء والصوفية ، وكان كثير الإنعام على الصوفية ، وسئل عن سبب ذلك فقال : أتانى صوفى وأنا فى خدمة بعض الأمراء فوعظنى ، وقال : اخدم من تنفعك خدمته ، ولا تشتغل بمن تأكله الكلاب غدا .

فلم أعلم معنى قوله . فشرب ذلك الأمير من الغد إلى الليل ، وكانت له كلاب كالسباع تفترس الغرباء بالليل ، فغلبه السكر فخرج وحده فلم تعرفه الكلاب فمزقته ، فعلمت أن الرجل كوشف بذلك ، فأنا أخدم الصوفية لعلى أظفر بمثل ذلك .

وكان إذا سمع الأذان أمسك عن جميع ما هو فيه .

وكان إذا قدم عليه إمام الحرمين ، وأبو القاسم القشيرى صاحب الرسالة بالغ فى إكرامهما وأجلسهما بجواره .

ويرجع الفضل إلى نظام الملك فى بناء المدارس لتلقى العلم ، وكان العلم قبل ذلك يتلقى فى المساجد .

فقد بنى المدارس والربط والمساجد فى البلاد ، واقتدى به الناس فى ذلك ، وشرع فى عمارة مدرسته ببغداد المسماة بالمدرسة النظامية سنة سبع وخمسين وأربعمائة ، وفى سنة تسع وخمسين جمع الناس على طبقاتهم ليشهدوا بها دروس كبار العلماء فى عصره .

وكان نظام الملك يواظب على حضور درس الحديث ، ويقول : أنا أعلم أنى لست أهلا لذلك ، ولكنى أريد أن أربط نفسى فى قطار النقلة لحديث رسول الله ﷺ .

توجه صحبة ملكشاه إلى أصبهان وعند قرية قريبة من نهاوند قال : إن هذا موضع استشهد فيه جمع كثير من الصحابة زمن أمير المؤمنين عمر بن

الخطاب، فطوبى لمن كان معهم . وما أن أتم هذه الكلمة حتى اعترضه صبى ديلمى على هيئة الصوفية ومعه ورقة قدمها له على أنه يطلب حاجة ، ودعا له الصبى وسأله أن يتناول منه الورقة . فمد يده ليأخذها فضربه بسكين كان يخبؤها فى قلبه ، فما حمل إلى مضربه إلا وقد فارق الحياة .

وقتل قاتله ، فإنه بعد أن ضربه حاول الهرب فعثر فى طُنب الخيمة فوقع فقتله الحرس .

ورثاه شبل الدولة أبو الهيجاء مقاتل بن عطية البكرى بقوله :

كان الوزير نظام الملك لؤلؤة نفيسة صاغها الرحمن من شرف

عزت فلم تعرف الأيام قيمتها فردها غيرة منه إلى الصدف

كان مقتله سنة ٤٨٥هـ (١) قبل وفاة ملكشاه السلطان بقليل .

ويشير ذلك الحادث إلى ما كانت عليه الأحوال السياسية فى ذلك الوقت فقد كانت هناك خلافة غير قادرة على ممارسة شئون الخلافة ، إنها منصب شرفى لا أكثر ولا أقل ، أما الحكم الفعلى فقد كان للسلاطين السلاجقة الذين ورثوا هذا النفوذ عن البويهيين الذين سبقوهم فى ذلك .

وقد ترتب على ذلك تعدد الولاء ، الذى استتبع تفريق كلمة الأمة . يضاف إلى ذلك ما كان يسود بين الناس من خلافات مذهبية وعقائدية .

فقد كان هناك الشيعة ولهم دولة رسمية تحكم باسمهم هى الدولة الفاطمية التى بسطت نفوذها على المغرب العربى ومصر وامتد هذا النفوذ إلى الشام وبعض أطراف الحجاز ، ولها تطلعات فى بغداد وغيرها ، وكانت الخلافة العباسية تعانى من ذلك .

وكان المذهب الإسماعيلى الشيعى قد ظهر واستفحل خطره حتى كون شبه

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ .

مملكة خاصة به تنظر بعين الرضا إلى الخلافة الفاطمية ، بل تدين بالولاء لها ، وتنظر بعين السخط إلى الخلافة العباسية ، وإلى كل من لا يوافق هواها وأغراضها .

الإسماعيلية

والإسماعيلية فرقة من الشيعة سميت بذلك لأنها وقفت بسلسلة الأئمة عند إسماعيل بن جعفر الصادق ، وقد توفى إسماعيل فى المدينة المنورة سنة ١٤٣هـ ـ ٧٦٠م .

وعلى الرغم من أن إسماعيل مات قبل أبيه الإمام جعفر الصادق ـ إلا أن الإسماعيليين أصروا على أنه الإمام بعد أبيه ، وأن قصة موته قبل أبيه لم تكن ، بل إنه ظل حيا بعد أبيه بخمس سنوات ، وأنه رئى فى البصرة بعد وفاة أبيه وقد وضع يده على مُقعد فأبرأه .

وقد ظهرت فى أفكار الإسماعيليين مبادىء تنافى الدين الإسلامى بل تدعو إلى هدمه ، ومنهم كان القرامطة الذين اعتدوا على حرمة البيت الحرام وقتلوا الحجاج وانتزعوا الحجر الأسود من مكانه وأخفوه بعيدا ، ومنهم من يعتقد التناسخ والحلول ويعتقدون ألوهية الإمام وعصمته .

وتزعم الطائفة فى فارس الحسن بن الصباح الذى استطاع أن يستولى على قلعة أطوت سنة ٤٨٣هـ ، واتخذ منها معقلا حصينا يغيرون منه على الأماكن المجاورة والحصون المختلفة التى زرعوا حولها حدائق فيحاء وحشدوا فيها من أنواع الملذات وأطلقوا عليها اسم الفردوس ،وكانوا يتصورون تحت سيطرة الحشيش الذين كانوا يتعاطونه ويدمنونه أنهم فى الفردوس حقا . ومن هنا كان يطلق عليهم : الحشاشون .

واعتنق مذهبهم تحت هذا التأثير والإغراء كثير من العاطلين والمغامرين ومن لا خلق له ، حتى استفحل خطرهم لأنهم كانوا يدينون بالإرهاب والاغتيال ، ولما

رأى السلطان السلجوقي ملكشاه أن وجود الإسماعيلية فى هذا المعقل كبير الخطر عهد إلى أرسلان طاش أحد قواده الكبار بمحاربة الحسن الصباح ووجوب القضاء عليه سنة ٤٨٥هـ .

فحاصر القائد المذكور القلعة ، ولكنه هزم أمامها هزيمة منكرة ، إذ خرج عليه الإسماعليية ليلا من القلعة وفاجأوه بالقتال .

وفى العام نفسه حاصر قائد آخرهو « قزل صاريغ » بأمر السلطان ملكشاه قلعة أخرى اسمها « ديرة » كان يملكها الإسماعيلية وقد كونوا فيها مركزا خطيرا لدعوتهم ، ولكن القائد لم يظفر من حصاره لها بطائل ، وتوفى ملكشاه فى نفس العام قتيلا .

وقيل : إن مقتله كان بيد فدائى إسماعيلى كما أن مقتل وزيره نظام الملك قبل مقتل ملكشاه بأربعين يوما كان على يد صبى فدائى اسمه « ظاهر أرانى » ينتمى إلى هذه الطائفة .

وقد روعت هذه الاغتيالات التى بدأت سلسلتها منذ ذلك التاريخ العالم الإسلامى ، وشغلت أذهان الناس ، لا بسبب هذه الأعمال الإجرامية فحسب ، بل بسبب ما أثارته من أفكار وعقائد خربت عقول الناس وعقائدهم .

وقد تجرد العلماء لمناقشة هذه الأفكار وإبطالها ، وكان للغزالى دور فى ذلك، فقد كان له كتاب من أخطر الكتب التى فضحت هذه الأفكار والمبادئ ، يحمل اسم « فضائح الباطنية »

وعلى كل فقد ظل الإسماعيليون خطرا على البلاد حتى قضى عليهم المغول فى طوفانهم الذى اجتاح البلاد الإسلامية .

إن صلاح الدين الأيوبى الذى قهر الصليبيين لم يستطع قهرهم ، بل إنهم ترصدوا له وحاولوا اغتياله لولا عناية الله التى أنقذته منهم . وقد سبق أن

تعرضنا لذلك فى كتابنا عنه .

وهكذا شاء الله ألا يُقضى على الفساد إلا بالفساد ، وألا تقلم أظفار الشر إلا بالشر . وصدق الذى يقول :

وماظالم إلا سيبلى بأظلم ..

فهذه هى الحالة السياسية فى العصر الذى عاش فيه الغزالى - رحمه الله - كان عصر صراع ونزاع بين الرءوس الحاكمة وبين الفرق الناشئة والمذاهب المنتحلة .

وفى الوقت نفسه كانت هناك صراعات بين الدولة وبين العدوان الخارجى المطل برأسه من جهة أوربا طامعا فى بسط سلطانه على بعض بلدان العالم الإسلامى ، وبخاصة فيما يتصل بالأماكن المقدسة فى الشام وفلسطين .

ولنشر إلى بعض الأحداث التى جدت لتذكرنا بتطلعات الفرنجة نحو بلاد الإسلام فى الفترة التى شهدت حياة الغزالى .

يقول الذهبى فى كتابه دول الإسلام : فى سنة اثنتين وستين وأربعمائة خرج اللعين صاحب قسطنطينية فى عسكر عظيم فنزل على « منبج » وهى بلد قديم بينه وبين الفرات ثلاثة فراسخ ، وبينه وبين حلب عشرة فراسخ فاستباحها ، وهرب منه عسكر حلب ، ثم رجع اللعين لشدة الغلاء (١) .

وفى العام التالى سنة ثلاث وستين وأربعمائة تم مصاف لم يسمع بمثله فى الإسلام بين الإسلام والشرك ، خرج « أرمانوس » طاغية الروم فى مائتى ألف من الروم والفرنج والعرب الكفرة والروس والكرج ، وهو فى تجمل عظيم يقصد بلاد الإسلام ، فوصل إلى أعمال « خلاط » وهى مدينة على ساحل بحيرة «وان» الغربى بأرمينية الصغرى وكان ألب أرسلان ببلدة « خوى » وهى مدينة

---

(١) دول الإسلام ج١ ص ٢٧٠ .

بأذربيجان ، فبلغه كثرة العدو ، وهو فى خمسة عشر ألفا ، فقال : أنا ألتقيهم وأستعين بالله ، فإن سلمت فبنعمة الله وإن كانت الشهادة فالأمر لله وابنى ملك شاه ولى عهدى .

فوقعت طلائعه على طلائع « أرمانوس » فأسر المسلون مقدمهم فأحضر إلى السلطان فقطع أنفه .

فلما التقى الجمعان بعث السلطان يطلب المهادنة فقال « أرمانوس » : لا هدنة إلا بإعطاء « الرى » .

فانزعج السلطان ، فقال له إمامه : إنك تقاتل عن دين وعد الله بنصره وإظهاره على الأديان ، وأرجو أن يكون الله قد كتب باسمك هذا الفتح .

فلما كان وقت الساعة التى يكون خطباء الإسلام يوم الجمعة على المنابر صلى السلطان وبكى ، وبكى الأمراء ودعا وأمنوا فقال : يا أمراء من أراد أن ينصرف فلينصرف ، فما ها هنا سلطان يأمر وينهى وألقى قوسه ، ثم جرد سيفه وعقد ذنب فرسه بيده ، وفعل الجيش مثله ، ولبس البياض وتحنط للموت ، ثم زحف بجيشه فلما خالطوهم ترجل السلطان وعفر وجهه بالتراب ، وأكثر الدعاء والبكاء ، ثم ركب وحمل هو والجيش ، فحصلوا فى وسط العدو ، وقتلوا فى الروم كيف شاءوا ، ونزل النصر وامتلأت الأرض بالقتلى ، وانهزم العدو وأسر ملكهم الأعظم « أرمانوس » .

فملا أحضر بين يدى السلطان ضربه بالمقرعة وقال : ألم أبذل لك الهدنة ؟

قال : دعنى من التوبيخ .

قال : فما كان عزمك أن تفعل بى لو أسرتنى ؟

قال : كل قبيح .

قال : فما تظن أنى أفعل بك ؟

قال : إما إن تقتلني أو تشهرني في بلادك ، والثالثة بعيدة ، وهي العفو وقبول المال واصطناعي .

قال : ما عزمت على غير هذا ، فافتدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار ، وأن يطلق كل أسير في ممالكه .

فأنزله السلطان في خيمة ، وخلع عليه ، وأطلق له جماعة من بطارقته . فكشف « أرمانوس » رأسه ، وسجد إلى جهة الخليفة ، وهادنه السلطان خمسين سنة (١) .

ومازالت هذه المناوشات تتوالى حتى تمكن الصليبيون من أن يضعوا أقدامهم في الشام ، بل ويكونوا ممالك لهم ، على النحو الذي بسطناه في كتابنا السابق «صلاح الدين الأيوبي» .

اضطرابات أمنية

ونظرا للخلافات الكثيرة ، والنزاعات المستمرة فقد كان الأمن يتعرض لكثير من الاضطرابات ، ويخرج بعض اللصوص وقطاع الطرق يروعون الآمنين ، ويغتصبون الأموال والأرواح .

يحدثنا الذهبي أيضا عن الأحداث سنة ٤٨٣ هـ فيقول : فيها عظمت البلية ببغداد بين أهل السنة والرافضة ، وقتل خلق ، وعجز الوالي ، وذلت الرافضة لتسنن الخليفة ، ثم ثاروا وعملوا العظائم وفيها سرق رجل أشقر ثيابا ، فأخذوه ثم هرب إلى نواحي الأحساء فقال لأمير بني عامر : أنت تملك الدنيا ، وحسن له نهب البصرة ، فجمع العربان وقصد البصرة والناس في أمن لهيبة السلطان ، فنهبها وفعل كل قبيح ، فجاء الصريخ إلى بغداد ، فانحدر العسكر فوجدوا الأمر قد فات ثم ظفروا بذلك الرجل الأشقر فصلب ببغداد (٢) .

(١) دول الإسلام ج ١ ص ٢٧٢ .

(٢) دول الإسلام ج ٢ ص ١١ .

ولقد كانت هناك مصادمات عنيفة بين أصحاب المذاهب من ناحية يثيرها التعصب الشديد ولا يكون التعصب إلا عند ضيق العقول وظلمة التفكير ، وانظر إلى رجل فقيه هو القاضي أبو عبد الله محمد بن موسى البلاساغوني التركي الحنفي قاضي دمشق وكان متعصبا يقول : لو كان لي أمر لأخذت من الشافعية الجزية (١) فهل هناك تعصب أعنف من هذا ؟

وكان القتال يدور بين الإسماعيلية وأهل السنة كثيرا حتى لم يعد هناك أمان .

لقد بلغ التأزم بين فريقي الشيعة وأهل السنة إلى حد تكاثرت فيه الضحايا من الأهلين من كلا الفريقين ،(٢) .

ولم يستطع السلجوقيون وهم الذين استولوا على السلطة السيطرة على الموقف بسرعة ، لأن البويهيين كانوا قد وضعوا قواعد رسخت طوال فترة حكمهم الطويل ، ولم يكن من السهل اقتلاعها بين يوم وليلة وقد رأينا كيف استنجد الخليفة القائم بأمر الله بالسلاجقة لينقذوه من براثن البساسيري الذي هدد دار الخلافة نفسها .

هذا هو ما كانت عليه الأحوال السياسية في عصر الغزالي ، أما الأحوال العلمية فنلخصها فيما يأتي :

الحالة العلمية

على الرغم من عدم الاستقرار السياسي ، وحالة الأمن التي تروعها الاضطرابات بين الحين والحين ، والتي روعت الغزالي نفسه ، في فترة من فترات حياته ، فقد خرج عليه اللصوص ذات مرة وقطعوا عليه الطريق وانتهبوا متعلقاته ، على النحو الذي سنذكره فيما بعد ..

على الرغم من كل ذلك ، فقد كان العصر علميا بمعنى الكلمة حيث انتهت

(١) دول الإسلام ج٢ ص ٣٤ .

(٢) الجويني إمام الحرمين د/ فوقية حسين محمود ص ٤٠ أعلام العرب .

إلى هذا العصر محصلات العلوم فى العصور السابقة منذ أن تنبه العلماء إلى واجبهم نحو دينهم وقرآنهم ولغتهم ، فألفوا وترجموا وابتكروا ، وقد وصلوا فى ذلك إلى درجة عظيمة ، وبخاصة فى عصر الدولة السابقة على دولة السلاجقة وهو عصر بنى بويه .

كان بنو بويه نعمة كبرى على العلوم ، فقد نضجت فى عهدهم العلوم ـ على اختلاف أنواعها نضجا كبيرا .

وظهرت الكتب الوافية الجامعة المؤلفة والمترجمة فى مختلف الفنون ، فى اللغة وعلومها ، والتاريخ والأدب ، والطب والفلسفة وكانت الدولة العباسية قد توزعت إلى دويلات تنافست فى اجتذاب العلماء وتكريمهم فأفرز ذلك نتاجا طيبا وازدهارا عظيما ..

فلما جاء السلجوقيون كان الأمر ممهدا لما هو أعظم ، فأنشئت المدارس المنظمة التى احتضنت العلماء والمتعلمين وأجريت عليهم الأرزاق وضمنت لهم الاستقرار لطلب العلم وعدم الانشغال بتحصيل المعاش ، وقديما قال الحكماء « إذا أحرزت النفس قوتها استقرت » .

يحدثنا ابن جبير فى رحلته التى كانت معاصرة تقريبا لعصر الغزالى أو بعده بقليل فيقول : شاهدت عشرين مدرسة فى دمشق وثلاثين فى بغداد .

ويمتاز عصر السلاجقة بالكتب الجامعة التى كانت تحوى حقائق كثيرة مختلفة . كما يمتاز بتشعب العلوم التى راجت برواج العلماء الذين برزوا فى كل ميدان .

ويكفى أن نشير إلى بعض الأعلام الذين نبغوا فى تلك الفترة التى شهدت حياة الغزالى :

فمن شيوخ اللغة والكلام والأنساب أبو القاسم عبد الواحد بن على بن برهان العكبرى المتوفى سنة ٤٥٦ هـ

ومن شيوخ الحديث والفقه والتاريخ أبو بكر أحمد بن الحسين البيهقى صاحب السنن الكبرى والصغرى ودلائل النبوة وغيرها المتوفى سنة ٤٥٨هـ

ومن علماء اللغة العلامة أبو الحسن على بن إسماعيل بن سيده الرسى صاحب كتاب المحكم فى اللغة المتوفى سنة ٤٥٨هـ .

ومن علماء الحديث والتفسير المحدث الحافظ أبو مسلم محمد بن على بن مهريزد الأديب المفسر المعتزلى له تفسير يتكون من عشرين مجلدا توفى سنة ٤٥٩هـ

ومن علماء اللغة أيضا العلامة أبو عمر يوسف بن محمد بن عبد الله النمرى القرطبى مؤلف كتاب التمهيد المتوفى سنة ٤٦٣هـ .

ومن العلماء الأجلاء حافظ الدنيا أبو بكر أحمد بن على بن ثابت الخطيب البغدادى صاحب التصانيف المختلفة المتوفى سنة ٤٦٣هـ .

ومن العلماء العاملين شيخ خراسان زهدا وعلما ،أبو القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى صاحب الرسالة القشيرية المتوفى سنة ٤٦٥هـ بنيسابور .

ومن أئمة الحديث الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن منده المتوفى سنة ٤٧٠هـ والحافظ أبو عبد الله بن منده المتوفى سنة ٤٧٥ هـ .

ومن الأئمة المجتهدين والعلماء العاملين أبو إسحاق إبراهيم بن على الشيرازى الشافعى والملقب بجمال الدين المتوفى سنة ٤٧٧هـ .

وشيخ الشافعية أبو نصر عبد السيد بن محمد الصباغ البغدادى مصنف كتاب الشامل ، والمتوفى أيضا سنة ٤٧٧هـ .

ومن أئمة العلماء أبو سعد المتولى عبد الرحمن بن مأمون النيسابورى المتوفى سنة ٤٧٨هـ .

وعالم زمانه إمام الحرمين أبو المعالى عبد الملك بن عبد الله بن يوسف

الجويني الشافعي المتوفى سنة ٤٧٨هـ بنيسابور .

وشيخ الحنفية قاضي القضاة أبو عبد الله بن على الداصقاني المتوفى سنة ٤٧٨هـ ببغداد .

وغيرهم كثير لا يكاد يحصى . وإنما ذكرنا هؤلاء لمجرد التمثيل عن كثرة العلماء الذى كان يغنى بهم كل قطر من أقطار الأمة الإسلامية الواسعة .

وكان العلماء فى ذلك الوقت موسوعات ، لا يقتصر العالم على مجرد فرع أو فرعين يعكف عليه فيتقنه ، بل كان يتجر في كل شيء من علوم لسانيه وعقلية ودينية وغيرها .

وكانت العلوم اللسانية تدور حول ما يقوم اللسان من نحو وصرف ولغة وبلاغة ،وكان إمام علوم البلاغة فى ذلك الوقت الإمام عبد القاهر الجرجانى المتوفى سنة ٤٧١هـ ، والذى ألف فى علوم البلاغة كتابين عظيمين هما « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » وجعل الأول خاصا بمسائل علم المعانى وجعل الثانى خاصا بعلم البيان من تشبيه واستعارة وكناية ومجاز ، ويعتبر كتابا عبد القاهر عروس كتب البلاغة إذ إنها مصوغة أحسن صوغ ، تناسب عبارة مؤلفها شرف الموضوع وسمو درجته .

وتشمل العلوم الدينية والشرعية : التفسير ، والحديث ، والفقه ، والكلام .

ويدور علم الكلام حول العقائد الإيمانية كوحدانية الله وكماله وقدرته ويتناول إثبات ذلك بالدليل العقلى ، بعد ثبوته بالدليل النقلى ، فترتفع الشكوك وتزول الشبه .

العلوم العقلية :

ومازال البحث يتدرج فى هذا العلم حتى شاعت الفلسفة وانتشرت آراؤها بين المسلمين فغلبت الفلسفة على علماء الكلام حتى نفر من تعلمه كثير من العلماء

ومنهم الغزالى الذى ألف كتابا أسمه « إلجام العوام عن علم الكلام » ، ذلك أن علم الكلام تدرج من البساطة إلى التعقيد ، ومن الفطرة السليمة إلى منازعة الشك ومجاذبة التردد ، ومن وضوح البيان إلى تعقيد الفلسفة ، حتى صار فى نهاية أمره طلاسم ، واختلطت مسائله بمسائل العلوم النظرية التى جدت فى الملة وصار لها السلطان على جميع الناس[1] .

عصر الفلسفة

يعتبر العصر الذى نشأ فيه الغزالى عصر الفلسفة ، فقد انتشرت فيه كأثر من آثار الترجمة للفلسفة اليونانية وغيرها من الفلسفات القديمة .. وكان قد سبق فى أفق العالم الإسلامى ظهور علماء فى الفلسفة من أمثال يعقوب بن إسحاق بن الصبّاح الكندى المتوفى سنة ٢٦٠ هـ ، وعلى يده انتقل علم الكلام من الكلام إلى الفلسفة الخالصة .

والفارابى وهو أبو نصر محمد بن محمد الذى كان فى الإسلام يشبه أرسطو فى اليونان ، فكما أن أرسطو هذب علوم الفلسفة ورتبها فكذلك فعل الفارابى فى ترتيب علوم الفلسفة وتهذيبها ، ولذلك أطلق عليه لقب المعلم الثانى ، وتوفى الفارابى سنة ٣٣٩هـ بدمشق .

وابن سينا الملقب بالرئيس وهو أبو على الحسين بن عبد الله بن الحسن بن على بن سينا ، ومن أشهر كتبه فى الفلسفة كتاب الشفا وهو موسوعة كبيرة فى الفلسفة الإسلامية وتوفى ابن سينا سنة ٤٢٨هـ [2] .

وظهرت فى ذلك العصر رسائل إخوان الصفا .

---

(١) الأدب العربى وتاريخه فى العصر العباسى لمحمود مصطفى ص ٢١٤ .

(٢) الوسيط فى تاريخ الفلسفة الإسلامية لعبد المتعال الصعيدى من ص ٤٠ ـ ص ٦٠ .

وتركت رسائل « إخوان الصفا وخلان الوفا » أثرها في اتجاه الناس إلى الفلسفة وتعلقهم بها ، وقد ظهرت هذه الرسائل خلال القرن الرابع الهجرى ، ولكن أثرها امتد إلى ما بعد ذلك . ونظرا لأهمية هذه الرسائل نلقى بعض الضوء عليها .

اجتمع هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم إخوان الصفا ، واتفقوا فيما بينهم على إصدار رسائل تهدف إلى تقريب الفلسفة لجمهور الناس ليفهموها على حقيقتها ويزول سوء ظنهم بها . وذلك باتباع أسلوب أدبى يسهل الفلسفة على جمهور الناس ، ويتركوا التعقيد الذى كان يعرض به الفلاسفة السابقون أفكارهم .

وقد اعتنى إخوان الصفا باختيار ألفاظ رسائلهم وأساليبهم ، وجاء فيها خيال كثير وتشبيه طريف وألفاظ متخيرة .

بلغت هذه الرسائل اثنتين وخمسين رسالة تدور حول المسائل الرياضية والطبيعية والنفسانية والعقلية والناموسية الإلهية والشرعية والدينية .

وكانت هذه الرسائل مقدمات لرسالة جامعة هى خلاصة العلم كما كانوا يقولون ، ولكن هذه الرسالة الجامعة لم تصل إلينا ، فهل كُتِبتْ وأخفيت ؟ أو أنها لم تكتب أصلا ؟ مازال الجواب مجهولا .

وقد كان الغرض من هذه الرسائل داعيا إلى أن تظهر من غير أن يُعرف من ألفها ، لأنها تدعو إلى تطهير الشريعة مما دنسها من الجهالات والضلالات ، وتتجه إلى الجمهور لتنشىء منه جيلا جديدا يؤمن بالفلسفة ويعرف الدين على الوجه الذى تزول به النفرة بينه وبينها ، وفى هذا خطر كبير على الحكام وعلماء الدين الذين استنام الجمهور إليهم ، واستراح إلى ذلك الوضع الدينى والسياسى الذى وضعوه فيه على ما فيه من الجهالات والضلالات (١) .

(١) الوسيط فى الفلسفة الإسلامية ص ٦٣ .

ومع ذلك فلم تكن هذه الرسائل مباحة لأى أحد ، بل كان هناك تحذير فى مقدمتها ، بأنه يجب على كل من حصل عليها ألا يضيّعها بوضعها فى غير أهلها ، وألا يظلمها بحرمان مستحقها من الإطلاع عليها ، ذلك لأنها للأول داء وللثانى دواء .

ولم تصرح الرسائل بأسماء من وضعوها ، لقد كانت تذاع وتروج دون أن يدرى أحد من الكاتب لها ، ومن هم هؤلاء الذين أطلقوا على أنفسهم لقب « إخوان الصفا وخلان الوفا » ولعل هذا الغموض من أسباب رواج هذه الرسائل وذيوعها وانتشارها ، ولقد تضاربت الآراء حولهم ، واختلفت الاتجاهات فى معرفة هويتهم ، فمن قائل : إنهم جماعة اتفقوا على تصنيف كتاب فى الحكمة ، ومن قائل : إن هؤلاء قوم من المعتزلة لم يريدوا أن يفصحوا عن شخصيتهم حتى يضمنوا إقبال الناس على ما كتبوه ، ولعل ذلك كان مرجعه إلى ازورار كثير من الناس عن الفكر المعتزلى بعد أن ابتلى كثير من العلماء بفتنة القول بخلق القرآن التى ابتدعوها وأوذوا فى ذلك أذى شديدا .

ومن قائل : إن هذه الرسائل من كلام بعض الأئمة الذين ينتسبون إلى الإمام على كرم الله وجهه .

ومن قائل : إنهم طائفة من الإسماعيلية الباطنية .

وبعضهم يقول : إن هؤلاء قوم كانوا يعيشون فى البصرة يتزعمهم زيد بن رفاعة ، وكان له ذكاء غالب ، وذهن وقاد وموهبة أدبية بارعة ، تنتظم الشعر وتبتذع النثر ، ولديه عقلية منظمة واعية وبصيرة نافذة وقد اصطحب معه جماعة على شاكلته منهم أبو سليمان محمد بن نصر البستى المعروف بالمقدسى ـ وأبو الحسن على بن هارون المعروف بالزنجانى ، وأبو أحمد النهرجورى وأمثالهم ، وكان هؤلاء يعيشون بالبصرة فى منتصف القرن الرابع الهجرى ، ومع ذلك فقد كان لهم فرع فى بغداد ، وربما بلغت شهرتهم إلى الحد الذى كانوا

يستقطبون أئمة الفكر فى مختلف البقاع ، فقد قيل : إن أبا العلاء المعرى الشاعر كان يلتقى بهم فى بعض دورات لقائهم وبالأخص فى آخر القرن الرابع الهجرى حين ارتحل إلى بغداد ، وقد وردت إشارة إلى ذلك فى كتاب المعرى «سقط الزند» .

هل هناك هدف سياسى وراء هذه الرسائل ؟

وتشير دائرة معارف الشعب إلى أن الدكتور طه حسين كان يرى أن وراء هؤلاء الذين سموا أنفسهم بإخوان الصفا ، ورسائلهم التى أصدروها هدفا سياسيا ويقول ما نصه :

« كان هؤلاء الناس إذن يعملون من وراء ستار ، ويؤلفون جمعية سرية وكان قوام جمعيتهم هذه - فيما يظهر - سياسيا وعقليا فهم يريدون قلب النظام السياسى المسيطر على العالم الإسلامى يومئذ ، وهم يتوسلون إلى ذلك بقلب النظام العقلى المسيطر على حياة المسلمين أيضا وهم يسلكون فى ذلك مسلك جماعات سبقتهم فى العالم القديم [1] .

هل أدت رسائل إخوان الصفا غايتها ؟

ولكن هل استطاعت هذه الرسائل أن تقرب الفلسفة إلى الجمهور ؟ وهلا استطاعت أن تطهر الشرعية مما التصق بها من جهالات ولحقها من خرافات فيما يزعمون ؟ وهل تمكنت من أن تنشىء أجيالا متبصرة لا تخضع خضوعا أعمى لمن يقودونهم على غير هدى ؟ الواقع أن الإجابة على ذلك كله بالنفى .

والسبب فى ذلك أن هذه الرسائل كانت قائمة فى كثير منها على أوهام ، ولذلك كانت فى حاجة إلى إصلاح ، وإن زعمت أنها جاءت للإصلاح ، ولم تضع القواعد الراسخة التى يمكن تطبيقها حتى تصلح أحوال الناس صغيرهم

---

(١) دائرة معارف الشعب ج ٥ ص ٥ .

وكبيرهم قائدهم ومقودهم . ولذلك لم ترض هذه الرسائل أنصار الفلسفة ولا أعداء الفلسفة .

إن بريق دعوتها الجذاب لم يدم ، وأسلوب رسائلها المشوق لم يلبث طويلا ، واستتارها بالتصوف لم يكن ناصرا لها ، لأن التصوف فى حقيقته صدق وصفاء وهو يبرأ من النفاق والرياء . كما أن التصوف عندهم كان مشوبا بالفلسفة ، والتصوف الإسلامى الحق لا علاقة له بالفلسفة لا من قريب ولا من بعيد .

التصوف

وكان التصوف وهو نزعة روحية قد استطالت فروعه ، وسطع فى أفقه علماء أجلاء من أمثال القطب أبى القاسم عبد الكريم بن هوازن القشيرى ،صاحب الرسالة القشيرية التى تعد عمادا من أعمدة المؤلفات الصوفية ، وقد سبقه كتاب آخر مشهور هو كتاب طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى المتوفى فى صدر القرن الخامس الهجرى . وللسلمى غير هذا الكتاب كتب أخرى منها : مناهج العارفين ، وآداب الصوفية ، والإخوة والأخوات من الصوفية ، ومقدمة فى التصوف . والفرق بين الشريعة والحقيقة ، ومحن الصوفية ، ومقامات الأولياء ، وعيوب النفس ومداواتها ، وجوامع آداب الصوفية . وغيرها فإذا كان هذا حصيلة عالم واحد فى فن واحد ، فما بالك بغيره من الصوفية الذين حفل بهم العصر ؟

لقد أصبحت المعانى الصوفية تدور على ألسنة الناس حتى ولو لم يكونوا قد تصوفوا أو سلكوا الطريق الصوفى ، نظرا لشيوع هذه النزعة ، وانخراط كثير من العلماء تحت لوائها ، بل ولا نغالى إذا قلنا إن غالبية العلماء كانوا صوفية سلوكا ولو لم يتسموا باسم الصوفية ، ذلك أن التصوف فى حقيقته منهج وسلوك وأخلاق، وليس مظهرية أواسما .

ومن علماء التصوف فى هذا العصر الإمام عبد العزيز بن أحمد الكتانى

المتوفى سنة ٤٦٦ هـ ، وزاهد خراسان أبو القاسم عبد الله بن على الطوسى كركان المتوفى سنة ٤٦٩هـ ، وأبو القاسم أبو القاسم سعد بن على الزيخانى المتوفى سنة ٤٧١هـ ، وكان حافظا زاهدا يطلق عليه شيخ مكة .

وشيخ الصوفية أبو على الفارمذى ـ نسبة إلى فارمذ إحدى قرى طوس ، والمتوفى سنة ٤٧٣ ، وهو من إخوان القشيرى صاحب الرسالة .

وعالم الشام الزاهد أبو الفتح نصر بن إبراهيم المقدسي الشافعي ، المتوفى سنة ٤٩٠هـ وله قبر ظاهر يزار بظاهر باب الصغير بدمشق .

والشيخ أبو منصور محمد بن أحمد الخياط الزاهد المتوفى سنة ٤٩٩هـ .

والشيخ عبد الرحمن بن أحمد الدونى الصوفى راوى كتاب النسائى والمتوفى سنة ٥٠١هـ .

لقد ظهرت المعانى الصوفية على ألسنة العلماء والأدباء ، حتى لقد نسبوا إلى أبى العلاء المعرى بعض أشعار لو تأملتها وجدتها تشير إلى معانٍ تحدث عنها الصوفية ، فهو يقول مثلا :

خلق الناس للبقاء فضلت	أمة يحسبونهم للنفاد
إنما ينقلون من دار أعمال إلى	دار شقوة أو رشاد

وقد قال السهروردى فى ذلك المعنى :

أنا عصفور وهذا قفصى	طرت عنه فتخلى رهنا
فاخلعوا الأنفس عن أجسادها	فترون الحق حقا بينا
لا ترعكم سكرة الموت فما	هى إلا نقلة من ها هنا

والمعرى يحمل على التدين الكاذب الذى لا يحمل صاحبه على القناعة والورع والزهد فيقول :

سبح وصل وطف بمكة زائرا سبعين لا سبعا فلست بناسك

جهل الديانة من إذا عرضت له أطماعه لم يلف بالمتماسك

ولأبى العلاء المعرى أخٌ أسَنُّ منه اسمه أبو المجد محمد بن عبد الله أثر عنه شعر فى الزهد ، رواه معجم الأدباء وهو :

كرم المهيمن منتهى أملى لا نيتى أجر ولا عملى

يا مُفْضِلا جلَّت فواضله عن بغيتى حتى انقضى أجلى

كم قد أفضت عَلَىَّ من نعم كم قد سترت على من زللى

إن لم يكن لى ما ألوذ به يوم الحساب فإن عفوك لى(١)

لقد كان ظهور التصوف رد فعل طبيعى لغلبة الفلسفة من جهة ولغلبة المادة من جهة أخرى .

لقد غالى الفلاسفة فى سلطان العقل مغالاة شديدة وتشعبت مسالكها واتجاهاتها حتى افتتن بها كثير من الناس ، حتى لقد وقف منها بعض الخلفاء موقفا معارضا .

وغلب الترف وتعددت مظاهره حتى أغرق كثير من المترفين أنفسهم فى اللهو والمجون واقتناص الملذات من كل طريق ، فظهر قوم آثروا الزهد على الترف والتقشف على الاستمتاع بلذات الدنيا وأطلق على هؤلاء لقب المتصوفة جاء فى كتاب « التصوف والحياة العصرية »

دعوة التصوف قديمة قدم الإسلام ، لأن التصوف هو مقام الإحسان الذى يعلو مرتبة الإيمان ، وأشار إليه الحديث الشريف « **الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** »

وإن كانت كلمة التصوف نفسها لم تطلق على هذا المفهوم إلا حين اتسعت رقعة الدولة الإسلامية ، ودخل كثير من الفرس والروم وغيرهم من البلاد

(١) معجم الأدباء لياقوت ج٣ ص ١١٠ .

المفتوحة الإسلام ، ونقلوا إلى العرب كثيرا من العادات والتقاليد التى صحبوها معهم ، وتخلى المسلمون تدريجيا عن الصلابة فى الدين والتشدد فى التمسك بتعاليمه ، وأخذوا يقبلون على اللذات ويعكفون عليها ، وعلى النعيم والترف واقتناء الدور والقصور والضياع والغلمان والعبيد والجوارى ، وشاعت مجالس الخمر والغناء ، وكثرت أماكن اللهو والمجون ، وفرط بعض المسلمين فى كثير من أمور الدين ، وتكاسلوا عن أداء الفرائض والعبادات ، ونشأ عن ذلك تفاوت غريب بين طبقات الأمة . ونشأ عن ذلك أيضا تباين فى العادات والأخلاق والأذواق ، وبالرغم من أن بعض الخلفاء حاولوا ألا يحجبوا أنفسهم عن طوائف الشعب ، فعقدوا مجالس العلم والمناظرة يؤمها من شاء من أهل العلم والأدب والطرف والفكاهة ، إلا أن أفراد الشعب كانوا يشعرون بفارق كبير بينهم وبين حكامهم وخلفائهم والمقربين إليهم ، وبخاصة حين أصبحت الخلافة وراثية محصورة فى أسرة واحدة .

ليس بغريب أن تنتج هذه الظروف دعوات إلى العدل والإنصاف وتذكر بالله وتخوف من الحساب والعقاب وتذكر بعذاب القبر وتهول من أمر الساعة ، إلى جانب ما تدعو إليه من حب الله والفناء فيه ، والصفاء والرحمة والمودة وإصلاح النفوس . وهكذا نشأت دعوة التصوف فى هذه الظروف التى طغت فيها المادة ، واستهتر الناس فيها بالمثل والقيم وعبثوا بالأخلاق (١) .

وهكذا وجد الغزالى نفسه وسط هذه التيارات المختلفة المتباينة تيارات سياسية، ونزعات إقليمية ، ومعارك مذهبية ، وفتن داخلية ، واتجاهات شتى فى الإقبال على العلوم التى كثرت وتشعبت ، فأقبل مع المقبلين على العلم ، ثم كان له موقف فريد هو الذى كشف عن هذه الشخصية التى أصبح لها فى التاريخ شأن وأى شأن .

---

(١) التصوف والحياة العصرية ــ عبد الحفيظ فرغلى على ص ٤٥ ــ ص ٤٧ ــ مجمع البحوث الإسلامية .



المولد والنشأة

المولد

ولد الغزالى فى طوس .

وطوس مدينة في إقليم خراسان .. وخراسان بلاد شاسعة الرقعة إلى الشرق من إيران ، تشمل الأراضى التى إلى الجنوب من نهر جيحون ، وإلى الشمال من «هندوكش» ومعنى كلمة خراسان : بلاد الشمس المشرقة ، مركبة من كلمتين «خُر» أى شمس ، و« آسان » أى مشرقة .

ومن أشهر مدن خراسان : طوس ، ونيسابور ، وأبيورد ونسا وسرخس وكلها بلاد عامرة قديمة وافرة الخيرات زاخرة بالعلم والعلماء .

وبين طوس ونيسابور نحو عشرة فراسخ . وأشهر معالمها قبر الإمام على بن موسى الرضا وقبر هارون الرشيد .

وبها آثار أبنية إسلامية جليلة أخرى .

ومن أشهر علمائها غير حجة الإسلام الغزالى : تميم بن محمد بن طمغاج الطوسي والوزير نظام الملك الذى تحدثنا عنه سابقا .

ومن أشهر التابعين المنسوبين إلى طوس ، أبو جعفر رضوان بن عمران الطوسى من أهل بخارى ، روى عن أسباط بن اليسع ، وأبى عبد الله بن أبى حفص ، وروى عنه خلف بن محمد بن إسماعيل الخيام . ذكر ذلك ابن سعد فى طبقاته ، كما نقله عنه ياقوت في معجم البلدان (١) .

وقال من أهل بخارى لأن بعض المؤرخين يذكر أن طوس من قرى بخارى . وفتحت طوس فيما فتح من إقليم خراسان زمن عثمان ـ رضى الله عنه ـ

(١) معجم البلدان ج٤ ص ٥٥ .

والأمير الذى فتح هذا الإقليم هو عبد الله بن عامر بن كريز سنة ٣١هـ ، وقد فتحت صلحا ، وقيل : فتحت زمن عمر ـ رضى الله عنه ـ على يد الأحنف بن قيس وإنما انتقضت فى أيام عثمان فأعيد فتحها .

فى ظل هذه البلاد قديمة الإسلام ولد الغزالى . من أسرة فارسية وكان والده رجلا صالحا يعيش على غزل الصوف وبيعه .

وعلى ذلك فكلمة غزالى لابد أن تكون مضعفة الزاى نسبة إلى غزّال والغزّال إما أن يكون صيغة مبالغة من الغزل ، أو اسم منسوب على وزن فعال كما يقال : فلان تمار أى يبيع التمر . ورجل نساج أى صناعته النسيج .

وهناك من يخفف الزاى فيقول : الغزَالى ، وهى بذلك نسبة إلى غزّال مع تخفيف التضعيف ، أو نسبة إلى قرية صغيرة من قرى طوس اسمها « غزالة » أو إلى عائلة تسمى بهذا الاسم .

وطوس كانت تتكون من ألف قرية كما يقول الحموى فى معجم البلدان فلا يبعد أن تكون غزالة إحدى هذه القرى .

وقد اندثرت مدينة طوس الآن ، ولم يعد لها أثر عامر ، بل هى مجرد خرائب قريبة من مدينة « مشهد » فى إقليم « جورجان » قريبا من جبال الألبرز [١] .

فى هذه القرية كان يقيم والد الغزالى . الذى ينتمى إلى أصل فارسى واسمه: محمد بن محمد بن أحمد الملقب بالغزالى .

وكان يرتزق من عمله الذى يقوم به وهو غزل الصوف وبيعه فى دكان صغير فى سوق الصوافين بطوس .

كان هذا الرجل صالحا ، فاته التعلم فأراد أن يعوض ذلك فى ولديه . ولم يكن هذا الوالد يأسى على شىء إلا على أنه لم يستطع أن يتعلم كما تعلم الفقهاء

---

(١) الأطلس الجغرافى العربى ص ٥٥ مربع ٣ ى .

فى عصره ، وما أكثرهم ! ولعل كثيرا من لداته الذين ولدوا معه ودرجوا معه ولعبوا معه فى طفولتهم عرفوا طريقهم إلى الكتاب ، وقرءوا القرآن وحفظوه ، ولعل منهم من أصبح فقيها يشار إليه بالبنان . أما هو فلم يحظ بهذا الشرف . وتلفت فإذا بسن التعليم قد فاتته ، وأن طلب المعاش قد حال بينه وبين تدارك ما فات ، فقد أصبح رب أسرة فى عنقه أطفال وزوجة لابد من أن يكدح ليحصل لهم الرزق لأنه هو المسئول عنهم .

ومع ذلك فقد حدث الرواة أن هذا الأب الصالح كان يغشى مجالس العلماء ، وهى منبثة فى المساجد المختلفة ، فكان يلتمس الفرص للاجتماع بهم ، والاستماع إليهم ، والتقرب منهم ، والتحبب إليهم ، والإسراع فى قضاء حوائجهم ،وكان حين يسمع كلامهم الطيب يبكى ، ويتضرع إلى الله أن يرزقه ولدا يكون مثل هؤلاء الفقهاء الذين يخرج النور من أفواههم فيصافح القلوب وينقلها إلى حضرة علام الغيوب .

لقد طالما تضرع إلى الله أن يعوضه عما فاته من نقص فيه بأن يرزقه من الأولاد من يصبح مثل هؤلاء العلماء فقها ومثل هؤلاء العلماء وعظا .. ولقد خرج تضرعه هذا من قلب خاشع مخلص ، فقد تفتحت السماء لدعوته كأنه كان يتقمص روح زكريا ــ عليه السلام ــ حين رغب إلى الله أن يرزقه ولدا تقر به عينه .

واستجابة السماء ليست أمرا مستحيلا مادام الداعى يطرق أبوابها بأدب الدعاء الذى جاء فى حقه : **«ادعونى بألسنة لم تعصونى بها » و « ادعونى وأنتم موقنون بالإجابة »**

ولدان لا ولد واحد

ورزق الله تعالى محمدا الغزالى ولدين لا ولدا واحدا ...

وسمى أحدهما أحمد وسمى الثانى محمداً .

أما أحمد فهو الملقب بمجد الدين ، وكنيته أبو الفتوح ـ وفى رواية أبو الفتح بن محمد بن أحمد الطوسى الغزالى .

وقد استجاب الله دعاء أبيه فيه فنشأ واعظا .

يقول عنه ابن خلكان فى كتابه الوفيات : كان واعظا مليح الوعظ حسن المنظر ، صاحب كرامات وإشارات ، وكان من الفقهاء ، غير أنه مال إلى الوعظ فغلب عليه (١) وكان له نشاط علمي فائق لم يقف عند حدود الوعظ ، بل تعداه إلى التأليف والتعليم .

أما التأليف فقد ألف عدة كتب أشار إليها البغدادى فى كتابه هدية العارفين فقال : من تصانيفه : « بحر المحبة فى أسرار المودة » فى تفسير سورة يوسف . و « بوارق الإلماع فى تكفير من يحرم السماع » و « التجريد فى كلمة التوحيد » و « الذخيرة فى علم البصيرة » و « الرسالة العينية لعين القضاة الهمدانى » و « كتاب الحق والحقيقة » و « لباب الإحياء » مختصر إحياء علوم الدين لأخيه أبى حامد الغزالى . و « المجالس فى المواعظ » و « مدخل السلوك إلى منازل الملوك » و « لطائف الفكر وجوامع الدرر » (٢) .وذكرله كتاب معجم المؤلفين : كتاب «سر الأسرار وتشكيل الأنوار» وكتاب « سوانح العشاق » وكتاب « خواص التوحيد»(٣) . وهى كتب يدور أغلبها حول المعانى الصوفية .

فكتاب الذخيرة يقول عنه صاحب كتاب كشف الظنون : إنه جمع فيه مؤلفه ما فرقه أخوه أبو حامد فى تصانيفه الكثيرة من العلوم وحصرها فى أربعة أصول : فى معرفة النفس ، وفى معرفة الرب ، وفى معرفة الدنيا ، وفى معرفة الآخرة . (٤) .

---

(١) وفيات الأعيان ج ١ ص ٤٩ .

(٢) هدية العارفين فى أسماء المؤلفين وآثار المصنفين لإسماعيل باشا البغدادى ج ١ ص ٨٣ .

(٣) معجم المؤلفين لعمر رضا كحاله ج ٢ ص ١٤٧ .

(٤) كشف الظنون ١/ ٨٢٥ .

وكان تدوين مجالس الوعظ المشار إليه ، بيد أحد تلاميذه هو صاعد بن فارس اللبان ، فقد ذكر ابن السبكى أن الشيخ أحمد الغزالى حين دخل بغداد وعقد مجلس الوعظ تزاحم عليه الناس ، فدون هذه المواعظ التى دارت فى مجالسه صاعد بن فارس ، وقد بلغت هذه المواعظ ثلاثا وثمانين موعظة ، جمعها فى مجلدين(١) .

أما مدخل السلوك إلى منازل الملوك ، فهو يشير إلى تأدب المريد السالك فى طريقه إلى ملك الممالك . وقد نسب البغدادى هذا الكتاب لأخيه حجة الإسلام ، وهذه المؤلفات تشهد بأنه وصل إلى منزلة علمية مرموقة ، أما مجالس وعظه فقد كانت غاصة بالناس تشير إلى صدقه من ناحية ، وإلى قوة وعظه وتأثيره فى القلوب من ناحية أخرى ، وأرباب القلوب يقولون : « ما خرج من اللسان لا يتجاوز الآذان ، وما خرج من الوجدان يستقر فى الجنان » وسئل أحد الوعاظ المؤثرين فى الناس : ما بالك تعظ فنبكى وواعظ المدينة يعظ فلا يبكى من وعظه أحد ؟ فأجاب: « ليست النائحة الثكلى كالنائحة المستأجرة »

قال عنه ابن خلكان : طاف أحمد الغزالى البلاد وخدم الصوفية بنفسه وكان مائلا إلى الانقطاع والعزلة ، وذكره ابن النجار فى تاريخ بغداد فقال : كان قد قرأ القارىء بحضرته ﴿**قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله** ..﴾ الآية فقال : شرفهم بياء الإضافة إلى نفسه بقوله : ياعبادى ، ثم أنشد يقول :

وهان على اللوم فى جنب حبها وقول الأعادى إنه لخليع

أصم إذا نوديت باسمى وإننى إذا قيل لى : يا عبدها لسميع

قال ابن خلكان معلقا : قلت ومثل هذا قول بعضهم :

(١) كشف الظنون ٢/ ١٥٩٠ .

وكان لا يضن بوعظه على أحد لأنه وجد أن ذلك واجبه نحو خلق الله ، ومسئوليته أمام الله . ولا يتورع أن يعظ الحاكم والأمير ، وقد وعظ السلطان نور الدين محمود ، فأعطاه السلطان ـ فيما يرويه ابن العماد الحنبلي ألف دينار (١) .

وأما التعليم ، فمجالس الوعظ كلها تعليم وإن كانت مطلقة غير مقيدة بوقت ، ولكنه قيد بالتدريس في مدرسة نظام الملك بنيسابور بعد أن هجر أخوه أبو حامد التدريس . فقام بهذه المهمة خير مقام ..

وعلى أي فقد كان أحمد الغزالي واعظا ناجحا كما كان معلما ناجحا ومؤلفا ناجحا وهي مواهب متعددة .

وكان يستعمل في مواعظه القصص المؤثرة والأمثلة الجاذبة فقد رووا عنه أنه حكى في مجلس وعظه أن بعض العشاق كان مشغولا بحسن صورة معشوقه ، وكان هذا موافقا له ـ أي يحبه مثلما يحبه ـ فجاءه يوما مبكرا فقال له : انظر إلى وجهي ، فأنا اليوم أحسن مني في كل يوم .

فقال له معشوقه : وكيف ذلك ؟

فقال : نظرت في المرآة فاستحسنت وجهي ، فأردت أن تنظر إلي .

فقال : بعد أن نظرت إلى وجهك قبلي لا تصلح لي .

ويعلقون على هذه القصة قائلين : إن هذه القصة تشير إلى نهاية الفناء في الحب . وغاية الميل إلى الاستئثار بالمحب (٢) .

وربما كان أحمد الغزالي شاعرا يستعمل الشعر في وعظه أحيانا ، ومن ذلك ما وعظ به أخاه أبا حامد الغزالي حيث قال له :

---

(١) شذرات الذهب لابن العماد ج٤ ص ٦٠ .

(٢) الغزالي د/ أحمد الرفاعي ج١ ص ٨٢ .

إذا صحبت الملوك فالبس من التوقى أعز ملبس

وادخل إذا ما دخلت أعمى واخرج إذا ما خرجت أخرس

وهما بيتان يصلحان لوعظ أهل الدنيا والآخرة معا .

فإن الأدب مع ملوك الدنيا يقضى بالاحتراس فى مجالسهم ومصاحبتهم وعدم إذاعة أسرارهم .

وبالأحرى أن يكون ذلك مع ملك الملوك ، فإن الأدب معه هو التقوى **﴿ولباس التقوى ذلك خير﴾** والرضا بما تجرى به يد القضاء فلا ينبغى التطلع إلى غير ما أجراه الله عليه من مواقع القدر ،وعدم الإباحة بما يفضيه الله عليه من أسرار وفيوضات .

الوالد يوصى بولديه

ولقد تعجلنا بالحديث عن أحمد الغزالى الذى تحققت دعوة الوالد فيه ، قبل أن نرى كيف وصل إلى هذه المنزلة ؟ وما الأسباب التى ساعدته على ذلك ؟ لأن محور الحديث فى هذا الكتاب عن أخيه لا عنه ، والحديث عنه تمهيد للحديث عن أخيه ومقدمة لابد منها لنرى كيف يستجيب الله دعوة الصالحين من عباده ، وإنما يتقبل الله من المتقين .

ولقد كان الوالد يسعده أن يرى ولديه كيف أصبحا ملء العيون والأسماع،وكيف تحقق فيهما ما كان يرجوه لهما ، وما كان يرجوه لنفسه ولم يتحقق فيه . ولكن الأجل حال دون ذلك ....

كان الوالد قد أوصى صديقا له بولديه أن يرعاهما بعد وفاته .

وكان صديقه هذا صوفيا ،وكان أمينا . لم يأل جهدا فى أن يحقق وصية صديقه بالنسبة لولديه .

نص الوصية

قال الرواة : لما حضر الموت أبا الغزالىْ دفع بولديه إلى صديق له من المتصوفة ، ووصاه بتربيتهما والعناية بتعليمهما . وبذل له ما عنده من المال ليستعين به فى ذلك ، وقال له : « ما كنت لأتأسف على شىء من الدنيا كأسفى على الخط ، وكيف لم يكن لى من معلمين . وقد استدركت بعض ما فاتنى من ذلك ، وأحب منك أن تتمم لهما ما عليهما ، ولا عليك ألا يقع لهما شىء بعد تعليمهما » .

ومضمون هذه الوصية يشير إلى شدة أسف الوالد على فقدانه التعلم فى صغره ،وحرمانه من الجلوس فى حلقات المعلمين ، وإلى أنه استطاع أن يستدرك بعض ذلك بتردده على الفقهاء والاستماع إلى دروسهم ووعظهم ، وإلى رغبته فى أن يعوض ذلك فى ولديه الصغيرين ، وإلى أنه عهد فى ذلك الأمر بالنسبة لهما إلى صديقه بعد وفاته وبذل له ما لديه من مال وأخبره بأنه لا بأس من استنفاده جميعه فى تعلمهما ولا عليه ألا يبقى من هذا المال شىء بعد أن يتعلما .

الصوفى يحقق الوصية

ولم تشر المصادر إلى اسم هذا الصديق الوفى ، الذى أقبل على تنفيذ وصية صديقه الغزالى بكل حرص وأمانة ، وقد عامل الصبيين كأنهما ولداه ، فأخذ بأيديهما إلى طريق الكتاب فى طوس وأجلسهما بين أيدى المعلمين ، وأوصاهما بما يوصى به الوالد أبناءه من حرص على الدرس واحترام للمدرس ، وحسن إنصات وفهم لما يلقى من دروس ، وعلى اعتبار أن هذا الصديق صوفى ، فالصوفى يعرف ضرورة احترام السالك شيخه حتى يتحقق له ما يطمح إليه من غاية ويتم له ما يريد من وصول .

ولم يلبث المال الذى تركه الوالد لولديه أن نفد ، فلم يكن بالكثرة التى يظن

أن تكفيهما حتى يتخرجا . ولم يشأ الصديق أن يفرط في وصية صديقه فالصوفي من أحرص الناس على الوفاء بالعهود ، ولا يبعد أن تكون هناك مؤاخاة معقودة بين الغزالي الأب والصوفي الصديق ، والصوفية يحرصون على هذه الأخوة ويعقدون عليها أملا كبيرا في الوصول إلى غاياتهم الكريمة ، ويعتبرونها أصلا من أصول الطريق الصوفي ، استمدادا من الأخوة التي عقدها النبي ﷺ بين المهاجرين بعضهم وبعض قبل الهجرة وبين المهاجرين والأنصار بعد الهجرة ، وهو القائل « **المرء قليل بنفسه كثير بإخوانه** » ومما قاله الصوفية في الاعتزاز بالأخوة والاعتناء بها :

وكثرة الإخوان شرعا تطلب … لما لها من كل خير يرغب

فكل مؤمن له شفاعة … مقبولة في هول أمر الساعة

ومن على صدق اشتياقه نظرْ … إلى أخيه نظرة فاق البشرْ

وكان مثل من بصدقه اعتكفْ … عاماً بمسجد النبي ذي الشرفْ(١)

ومن أقاصيصهم في المحافظة على الأخوة ما يرويه السهروردي في عوارف المعارف من أن أحدهم قصد أخا له في الله يستعين به في أداء دين عاجل ، فأعطاه ما يريد ثم دخل على زوجته يبكي ، فقالت له : ما يبكيك وقد كان في وسعك أن تعتذر له ولا تعطيه ؟ فأجابها : ما على المال أبكي ولكني أبكي لأنني ضيعت حق أخي فلم أتفقد حاله حتى حملته على أن يسألني (٢) .

وهذه مثالية نادرة ، ولقد راعى الصديق الصوفي حالي الصبيين بكل أمانة ، حتى نفد المال المودع لديه ، وهو نزر يسير ، ولم يشأ أن يتخلى عنهما على الرغم من ذلك ، ولكنه أخذ بأيديهما إلى الطريق الذي يضمن تنفيذ وصية

---

(١) الشيخ حسن رضوان في كتابه « روض القلوب المستطاب » .

(٢) التصوف والحياة العصرية ـ عبد الحفيظ فرغلي ص ٣٣ ، ص ٣٤ مجمع البحوث الإسلامية .

والدهما دون تعويق . فقد قال لهما فيما أخبر الرواة : اعلما يا ولدى أننى قد أنفقت عليكما ما كان لدى من مالكما الذى تركه أبوكما لكما .

وأنا رجل فقير متجرد لا مال لى أواسيكما منه وأصلح حالكما به ، والرأى عندى أن تلجئا إلى مدرسة تتعلمان فيها وتكفل لكما الرزق .

واستجاب الولدان لهذا الرأى السديد .

والمتجرد عند الصوفية هو الذى عقده التوكل ، والتجرد حالة فردية خاصة لا يقاس عليها ، ولا يندبون أحدا إلى التخلق بها ، حتى إن ابن عطاء الله السكندرى صاحب كتاب « الحكم » وكتاب « التنوير فى إسقاط التدبير » حدثته نفسه أن يتجرد ويترك الأسباب فمنعه شيخه المرسى من ذلك قائلا له : صحبنى إنسان مشتغل بالعلوم الظاهرة ومتصدر فيها ، فذاق من هذه الطريق شيئا ، فجاء إلى فقال : يا سيدى، أخرج مما أنا فيه ، وأتجرد لصحبتك ؟ فقلت له : ليس الشأن ذا ، ولكن امكث فيما أنت فيه خير ، وما قسم الله لك على أيدينا فهو إليك واصل .(١)

وابن عطاء الله هو صاحب الحكمة العظيمة : « إرادتك التجريد على إقامة الله إياك فى الأسباب من الشهوة الخفية » وحتى هذه الحالة لها شروط قاسية تمنع من تحقيقها إلا فى الأقل النادر الذى يدخل تحت قوله تعالى ﴿ **كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا قال يا مريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب** ﴾ [آل عمران : ٣٧] ، والنادر لا حكم له كما يقولون (٢) .

وإذن فتجرد هذا الصديق لم يمكنه من أن يمد لهما يد المساعدة . ولكنه

---

(١) التنوير فى إسقاط التدبير لابن عطاء الله السكندرى .

(٢) التصوف والحياة العصرية ص ٨٢ .

نصحهما ، وكان فى قبول نصحه أعظم الفوائد وأجل المنافع .

كان نظام المدارس فى ذلك الوقت قد نشأ ، وأخذ ينتشر كما سبقت الإشارة إلى ذلك حتى أنشأ نظام الملك بعد ذلك مدرسة فى نيسابور وأخرى فى بغداد وأصبح المدرسون والأغنياء يتنافسون فى إنشاء هذه المدارس التى تقوم بشأن الطلاب ، وتضمن لهم الإقامة والتعليم والطعام .

نظام الأزهر أسبق

ولا ينبغى أن نغفل عن أن الأزهر كان له نظام يقضى بأن يكفل للمتعلم فيه بعض رزقه ومعاشه ، بما كان يقدمه له فيما يسمى « الجراية » وهى الخبز الذى كان يقدمه لطلابه يوميا ، ثم تطور بعد ذلك بما يسمى بدل الجراية وهو المال الذى كان يصرف للطالب شهريا نظير انقطاعه للعلم ، وقد ضمن للطلاب الإقامة فى أروقته التى أقامها ، ثم حل محل هذه الأروقة فى العصر الحديث مدينة البعوث الإسلامية التى تستقبل الآلاف من أبناء المسلمين من شتى أنحاء العالم فتكفل لهم الإقامة والمعاش فى أماكن نظيفة صحية وتقدم لهم الوجبات المطهية الغنية فى أوقات محدودة ونظام دقيق .

ولا شك أن الأزهر كان سابقا فى نشأته على المدارس التى نشأت فى القرن الخامس فهو بذلك سابق على نظمها الخاصة برعاية الطلاب وكفالة رزقهم .

وربما جعلنا ذلك نطرح السؤال الآتى : لماذا أنشأ نظام الملك المدارس ؟

والإجابة على ذلك . أن نظام الملك أراد أن يقضى على المذهب الشيعى الذى أقر وضعه الفاطميون والبويهيون عن طريق العلم .

لقد كانت هناك منافسة شديدة بين الآراء الشيعية والآراء السنية أدت إلى تضارب وفتن أشرنا إلى بعضها فيما سبق ، وكان إنشاء الأزهر ونظام الدراسة فيه ـ وقد أسس لإقرار المذهب الشيعى وتدريسه بين وفود الطلاب إليه ـ

يخطف أنظار المتعلمين ، فكان لابد من إنشاء نظام منافس له ..

جاء في كتاب : « الجويني إمام الحرمين » : فقد تبين الملك « ألب أرسلان » الذي اعتلى كرسي الحكم حوالي عام ٤٥١ هـ ومعه وزيره القدير « نظام الملك » أنه لن يقضي على الفتن القائمة بين مختلف الفرق المذهبية إلا بنشر وعي دقيق بحقيقة المذهب السني ، وهكذا اتجه « نظام الملك » إلى تحقيق هذه السياسة الحكيمة ، فعمل على نشر العلم بفتح المدارس الكثيرة التي يدرس فيها المذهب السني على أيدي أئمة كبار من أهل المذهب ، وكان من أهم تلك المدارس ما أشار إليه السبكي في نصه : وبنى « يقصد نظام الملك » مدرسة ببغداد ومدرسة ببلخ ومدرسة بنيسابور ، ومدرسة بهراة ، ومدرسة بأصبهان ، ومدرسة بالبصرة ، ومدرسة بمرو ، ومدرسة بآمل طبرستان ، ومدرسة بالموصل ..

ويجب ألا ننسى ما كان قائما من مدارس من قبل في بعض المدن مثل نيسابور قد ساهم في هذه التوعية الواسعة .

ويذكر السبكي من هذه المدارس السابقة على المدرسة النظامية بنيسابور مدرسة البيهقي ، والمدرسة السعدية التي بناها الأمير نصر الدين بن سبكتين أخو السلطان محمود ، حين كان واليا على نيسابور ، ومدرسة بناها أبو سعيد إسماعيل ابن على الاستر باذى ، ومدرسة بنيت للأستاذ إبي إسحاق الإسفراييني .

وقد عمل بكل مدرسة من تلك المدارس التي أنشأها نظام الملك ، أو تلك التي سبقت الحملة السنية السلجوقية الكبرى إمام سني للتدريس والوعظ والفتوى ، ومن بين أولئك : الإمام أبو إسحاق الشيرازي الذي جلس على رأس المدرسة النظامية ببغداد ، والإمام الجويني إمام الحرمين على رأس مدرسة نيسابور [١] .

---

(١) الجويني إمام الحرمين د/ فوقية حسين محمود ص ٤١ ، ص ٤٢ .

فى المدرسة

التحق الغزاليان بمدرسة طوس ، وأقبلا على العلم بنهم شديد لقد كان لديهما تطلع كبير للعلم وتشوق شديد إلى الاغتراف من فيضه ،وكانا يودان أن يحققا أمل أبيهما فيهما ، ويحفظا بعلمهما ذكره ويحييا أثره .

لقد عرفا فيما تلقيا من دروس أن عمل الإنسان يبقى بعد موته إذا ترك من بعده ولدا صالحا يدعو له ، أو علما نافعا ينتفع به ، أو صدقة جارية ، وبذلك جاء الحديث الشريف ، فليكونا هما العلم النافع الذى يبقى أثر هذا الوالد البر الصالح الذى حرص على تعليم ولديه وأوقف على ذلك كل ما لديه .

كان شيخ الغزالى فى مدرسة طوس أحمد بن محمد الراذكانى . كان يدرس عليه الفقه الشافعى وسيأتى الدحيث عن سبب أختيار هذا المذهب والراذكانى نسبة إلى راذكان قرية من قرى طوس ، قال عنها ياقوت فى معجمه : خرج منها جماعة من أهل العلم ويقال : إن نظام الملك الوزير كان منها ، ومن علمائها المشهورين الحسن بن أحمد الراذكانى أبو الأزهر الطوسى ، كان فقيها منقطعا ، فاضلا ، عفيفا ، وكان معاصرا للغزالى ولد سنة ٤٧٠هـ وتوفى سنة نيف وثلاثين وخمسمائة[١] ، ولعل الحسن هو ابن الشيخ أحمد الذى تتلمذ عليه الغزالى .

وكان معه أخوه يطلبان العلم ، وقد استطاعا أن يتبحرا فى الفقه الشافعى ولابد أن يسبق الفقه حفظ القرآن ومعرفة العربية ودراسة أصولها ، فذلك من أبجديات التعلم .

رحلة إلى جرجان

وبدا له أن يتبحر فى العلم ويتقدم خطوة أوسع فى محاولة لإرواء ظمئه ،

---

(١) معجم البلدان لياقوت .

فترك أخاه بطوس ، وقصد جرجان ، وكانت جرجان إذ ذاك زاهرة طبيعة وصناعة وعلما . فقد اشتهرت بالبساتين المحيطة بها التى ترويها مياه النهر ، وكان أهم منتجاتها الحرير ، وكانت أيضا محطة فى طريق القوافل المتجهة إلى روسيا وكان النهر يقسمها قسمين ، وقد أقيم جسر فوق النهر ، أما القسم الشرقى فهو المدينة وأما القسم الغربى فهو ضاحيتها وفى أفق جرجان سطعت نجوم علمية تنتسب إليها منها الجرجانى إسماعيل بن الحسن طبيب عربى مشهور توفى سنة ٥٣٠هـ وله مؤلفات قيمة فى الطب والفلسفة ، والجرجانى عبد القاهر إمام البلاغة ، وصاحب كتابى دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة والجرجانى القاضى صاحب كتاب الوساطة بين المتنبى وخصومه . وغيرهم .

ولم تكن غاية الغزالى الالتقاء بواحد من هؤلاء ولكن غايته كانت متجهة إلى الإمام أبى نصر الإسماعيلى ، وهو إمام مبرز فى مختلف العلوم .

ولزم الغزالى حلقة هذا الأستاذ ، وعكف على تدوين كل ما كان يسمعه منه حتى جمع من ذلك تعليقة كبيرة تناولت مختلف المعارف وحرص الغزالى على هذه التعليقة التى اعتبرها كنزا ثمينا ينبغى الحرص عليه .

إلا أن حرصه على هذه التعليقة لم يدفعه إلى مراجعتها واستذكارها ومدارستها ومراجعتها على بعض زملائه فى الدرس ، ولذلك كان تحصيله لما فيها تحصيل كاتب أو ناسخ لا تحصيل باحث دارس . وهذا التحصيل لا يغنى عند أصحاب العلوم شيئا ، فإن العلم الحقيقى لا يثبت إلا عن طريق الدارسة ، وقد قال الحكماء : إحياء العلم مدارسته ، وفى رواية مذكراته وهما بمعنى .

وكم من طالب يجلس فى حجرة الدراسة ويستمع ويفهم لما يلقى من دروس ، ثم ينصرف دون أن يكلف نفسه عناء مراجعة ما سمع ، فسرعان ما يذهب ما حصل أدراج الرياح ، والذى يدون أحسن حالا منه ، لأن العلم كما يقولون صيد والكتابة قيده ، ولكن لابد من بقاء القيد ـ أى المكتوب ـ فإذا فقد المكتوب فات

المطلوب . وهذا ما حدث للغزالى .

هو وقطاع الطريق

واسمع ما يقصه علينا الغزالى فى شأن هذه الرحلة إلى جرجان والعودة منها، فإنه بعد أن عكف فيها شهورا يجمع ما جمع من علم جمع النهم ، وعن له أن يعود إلى طوس . وانضم إلى قافلة ومعه ، خرجه ، الذى أودعه تعليقاته من شيخه ، وسارت القافلة فى طريقها ، وإذا بقطاع الطريق يقطعون عليها الطريق ، وصادروا كل ما يحمله المسافرون من أمتعة . وفى القافلة تجار معهم أموال وبضائع استولى اللصوص عليها ، وحمد المسافرون ربهم على أن نجوا بأنفسهم ، وإن كان المتاع قد ذهب ، فالمتاع عرض فان يمكن تعويضه . هكذا قال التجار لأنفسهم يعزى بعضهم بعضا .

ولكن الغزالى لم يتعز بذلك ، لأن روحه هى التى ذهبت وروحه هى تعليقته التى أودعها جرابه الذى استولى عليه اللصوص . فلم تطاوعه نفسه أن يسكت ، بل حاول أن يسترد هذه التعليقة ولو ذهبت فى ذلك نفسه .

استمع إليه يقول : قطع علينا الطريق ، وأخذ العيارون ـ اللصوص ـ جميع ما معى فتبعتهم ، فالتفت إلى سقدمهم ـ رئيسهم ـ وقال : ارجع ويحك وإلا هلكت .

فقلت له : أسألك بالذى ترجو السلامة منه أن ترد على تعليقتى فقط ، فما هى بشىء تنتفعون به .

فقال : وما هى تعليقتك ؟

فقلت : كتب فى تلك المخلاة هاجرت لسماعها وكتابتها ومعرفة علمها .

فضحك وقال : كيف تدعى أنك عرفت علمها وقد أخذناها منك ، فتجردت من معرفتها ، وبقيت بلا علم ؟

ثم أمر بعض أصحابه فسلم إلى المخلاة .

ثم يقول الغزالى : وهذا منطق أنطقه الله ليرشدنى فى أمرى ، فلما وافيت طوس أقبلت على الاشتغال ثلاث سنين ، حتى حفظت جميع ما علقته ، وصرت بحيث لو قطع على الطريق مرة أخرى لم أتجرد من علمى ...[1]

وسلوك الغزالى لا شك سلوك حميد ،وهو يصور لنا مدى حرصه على العلم وتعلقه به . لقد رأى فيما ضاع منه من أوراق وتعليقات ضياعا لجزء من ذاته ، لقد هاجر من وطنه طوس من أجل ما دوّنه فى هذه الأوراق ، فمتى ضاعت فقد ضاعت رحلته ، وذهب تعبه سدى .

وليس إهمال مراجعة ما كتب فى تلك المرحلة عيبا بالنسبة له ، ولكنه التصرف الطبيعى ، فإن الإنسان فى أثناء سماع محاضرة مثلا يتابعها بتقييد ما يرى أنه ضرورى فى التقييد ثم إنه بعد فراغه يعود إلى ما قيده ليسترجعه . وكان الغزالى فى محاضرات دائمة فهو مشغول بالتقييد والكتابة . لم يحن عنده وقت المراجعة ، إن ذلك سوف يكون بعد عودته إلى طوس .

وحرص الغزالى على استرجاع مخلاته دليل على عنايته بأمر الكتاب وأن الكتاب عنده له قيمة شديدة تعدل الروح ، فقد كادت روحه تزهق فى سبيل استرجاع كتبه ، نفهم ذلك من التهديد الذى وجهه إليه رئيس العصابة ، وهكذا يجب أن يحتل الكتاب فى نفس المتعلم منزلة كبيرة لأنه النور الذى يبصر به ، والهواء الذى يعيش عليه .

العودة إلى طوس

وعاد الغزالى إلى طوس ، وقد استرجع فى نفسه ذكريات رحلته ، وأقبل على كل ما دونه فى تعليقاته يحفظه عن ظهر قلب .

ثلاث سنين قضاها فى هذه المهمة ، مما يدل على كثرة ما كان علقه ،

(١) الغزالى د/ فريد الرفاعى ١/ ٩٠ .

وتنوع ما جاء فى هذه الأوراق من معارف ، ولعل متسائلا يسأل : وهل الحفظ هو الطريق السليم لتلقى المعرفة ؟ وللإجابة على ذلك نقول : إن الحفظ بدون فهم هو الخطأ ، وقد قيل لبعض الشيوخ ولعله الشيخ المراغى رحمه الله قديما : إن فلانا حفظ القاموس . فأجاب : لقد زادت نسخة ــ أى من نسخ القاموس ــ ومعنى ذلك أن الحفظ بدون تصرف لا يضيف إلى العلم شيئا ولا ينتفع به صاحبه . إن الحافظ لا يزيد على أنه نسخة مكررة من الكتاب المحفوظ مع فرق، هو أن الكتاب المحفوظ قد يبقى دهرا طويلا ، أما الحافظ فعمره قصير ، ولذلك لا تبقى نسخته إلا بمدى انفساح أجله .

والغزالى رحمه الله لم يكن مستظهرا فحسب ولكنه كان واعيا لما يحفظ ، فاهما لما يقرأ . إن اعتكافه على حفظ ما كتب لم يكن إلا لحرصه على التراث الذى حصله من شيخه الذى هاجر إليه وسمع منه ، فهو لم يرد أن يضيع هذا المسموع دون أن يبقى أثره مقيدا .

وهناك علماء أجلاء مبرزون فى علومهم مجددون فيها ، كانوا حافظين حتى لقد أثر عن بعض المالكية أنه قال : لو فنى مذهب الإمام مالك لجددته من صدرى ، وأثر عن بعض الشافعية أنه قال : لو ذهب مذهب الشافعى لجددته من صدرى ، قال الذهبى فى تاريخه عن أبى بكر محمد بن المظفر بن بكر إن قاضى القضاة ببغداد كان يقال عنه : لو رفع مذهب الشافعى أمكنه أن يمليه من صدره رحمه الله تعالى ، توفى سنة ٤٨٨هـ (١) .

وممن يضرب به المثل فى حفظ مذهب الأحناف شمس الأئمة أبو الفضل أبو بكر بن محمد الأنصارى الجابرى البخارى المتوفى سنة ٥١٢هـ (٢) .

---

(١) دول الإسلام للذهبى ٢/ ١٧ .

(٢) المرجع المذكور ص ٣٩ .

فالحفظ ليس عيبا ، ولكنه مزية فى صاحبه مادام متصرفا فيما يحفظ ، مؤديا له على أحسن وجه وأكمل صورة .

وقد كان الغزالى كذلك ، لأنه كان يحفظ المعنى ولا يستظهر اللفظ فكان إذا ما عاد يستشهد بشىء مما وعاه لم يجئ على وجهه الذى قيد به ، ولكنه كان يؤديه بعبارة من عنده ، ويصوغ له اللفظ الذى يوفى غايته ويأتى بمراده (١) .

رحلة إلى نيسابور .

ثم أرتحل الغزالى إلى نيسابور ...

ونيسابور فى ذلك الوقت قلعة العلم والعلماء .

قال ياقوت الحموى عن نيسابور فى معجمه : لم أر مدينة مثلها .

وقد تخرج فى ظلها كثير من العلماء الأجلاء منهم إمام الأئمة أبو بكر محمد ابن إسحاق بن خزيمة النيسابورى الفقيه الحافظ توفى سنة ٣١١هـ .

والإمام الحافظ أبو على الحسين بن على المتوفى سنة ٣٤٩هـ ، وهى التى أنجبت حافظ عصره الملقب بالحاكم أحد أصحاب المسانيد المتوفى سنة ٤٠٥ هـ كما أنجبت الإمام أبا الحسن على بن أحمد الواحدى النيسابورى المتوفى سنة ٤٦٨هـ ، وكثير غيرهم .

وكان هدف الغزالى من هذه الرحلة هو الالتقاء بإمام الحرمين الجوينى والتتلمذ عليه ..

فى صحبة الجوينى

والجوينى هو أبو المعالى عبد الملك ابن الشيخ أبى محمد عبد الله بن يوسف ابن عبد الله بن يوسف بن محمد بن حيويه الجوينى الفقيه الشافعى . الملقب

(١) الغزالى د/ فريد الرفاعى ٩٢/١ .

ضياء الدين المعروف بإمام الحرمين .

أجمع العلماء على إمامته واتفقوا على غزارة مادته ، وتفننه فى مختلف العلوم : الأصول والفروع والآداب وغيرها وبخاصة الفقه الشافعى ، فقد قالوا عنه : إنه أعلم المتأخرين من أصحاب الإمام الشافعى على الإطلاق . وكان إلى جانب علمه كثير العبادة .

وقد ورث الإقبال على العلم عن أبيه ، فقد كان أبوه إماما فى التفسير والفقه والأصول والعربية والآداب ، فنشأ الابن على منوال أبيه ، وكان قد تتلمذ فى أول أمره على يديه ، وكان أبوه يعجب بطبعه وتحصيله وجودة قريحته وما يظهر عليه من مخايل الإقبال ، فأتى على جميع مصنفات والده وتصرف فيها وزاد عليه فى التحقيق والتدقيق ، وحين مات أبوه تولى التدريس مكانه .

وكان إذا فرغ من درسه مضى إلى مدرسة البيهقى ليلتقى هناك بالإمام أبى القاسم الاسفرايينى ، ويتلقى على يدبه ما يجد فى نفسه أنه فى حاجة إليه .

ونبغ الجوينى فى العلوم وتفنن فيها حتى أصبح علم الأعلام .

وسافر إلى بغداد طلبا فى الزيادة من العلم ، ثم سافر إلى الحجاز وجاور بها أربع سنوات ، وسافر إلى المدينة المنورة وجلس فيها للتدريس والإفتاء ، ومن هنا جاءه اللقب بإمام الحرمين ، أى مكة والمدينة .

ثم عاد إلى نيسابور فى أوائل ولاية السلطان ألب أرسلان السلجوقى والوزير نظام الملك .

وكان نظام الملك قد بنى مدرسته النظامية فى نيسابور . بل قيل : إن نظام الملك بناها من أجل الجوينى ، وجلس فيها الجوينى ليتلقى الناس على يديه العلم ، ويستمعون إلى خطبه ومواعظه ومناظراته .

وظهرت مصنفات كثيرة للجوينى ، وحضر دروسه كبار الأئمة الذين أعجبوا

ببراعته وتقدمه . يقول ابن خلكان : لقد انتهت إليه رياسة الأصحاب ، وفوض إليه أمور الأوقاف ، وبقى على ذلك قريبا من ثلاثين سنة غير مزاحم ولا مدافع ، مسلم إليه المحراب والمنبر والخطابة والتدريس ومجلس التذكير يوم الجمعة . وصنف فى كل فن .

ومن تصانيفه : نهاية المطلب فى دراية المذهب الذى ما صنف فى الإسلام مثله .

وهو كتاب فخم فى الفقه الشافعى يتكون من عدة أجزاء ، تصل فى بعض النسخ إلى اثنين وعشرين جزءا .

وله كتاب آخر فى الفقه اسمه : مناظرة فى الاجتهاد فى القبلة ، ورسالة عنوانها : فى زواج البكر ،وكتاب : السلسلة فى معرفة القولين والوجهين على مذهب الشافعى ، وكتاب آخر : رسالة فى الفقه ، وله فى أصول الفقه كتاب البرهان فى أصول الفقه ، وكتاب الإرشاد إلى أصول الفقه ،وكتاب المجتهدين .

وله فى أصول الدين كتاب الإرشاد إلى قواطع الأدلة فى أصول الاعتقاد وكتاب الشامل فى أصول الدين . وغير ذلك من المؤلفات (١) .

قال أبو جعفر الحافظ : سمعت أبا إسحاق الشيرازى يقول لإمام الحرمين : يا مفيد أهل المشرق والمغرب ، أنت اليوم إمام الأئمة (٢) .

تصوف الجوينى

وكان الجوينى يفضل التصوف على الكلام ، لأنه خلص من تجاربه العلمية ومحصلاته الكثيرة إلى أن أقصر طريق موصلة إلى الله تعالى هى مجاهدة النفس وقطع علائقها .

---

(١) راجع فى ذلك الجوينى إمام الحرمين ص ٥٩ ـ ص ١٢٢ .

(٢) وفيات الأعيان ١/ ٥١٥ .

وعلى الرغم من كثرة مناظراته ومؤلفاته التى دارت حول علم الكلام الذى كان رائجا فى عصره رجع فى آخر حياته ليقول : « اشهدوا على أنى رجعت عن كل مقالة يُخالفُ فيها السلف وأنى أموت على ما يموت عليه عجائز نيسابور»(١) .

كان السبكى يرى أن المقصود بهذه العبارة أن الإمام يرجع عن التأويل إلى التفويض ، إنه يرمى إلى أن يكون إيمانه قويا ثابتا فى النفس وأن يكون الطريق إلى التعرف على حقيقة ذاته العلية القلب دون العقل ، وطريق القلب هو طريق الصوفية ، وإمام الحرمين قد اشتغل بالتصوف والتصوف فى ذلك الوقت لم يكن غير اتباع الكتاب والسنة ، فيكون طريق السلف ما هو إلا التصوف الذى ينتهى بالباحث إلى التحقيق بالذات العلية (٢) .

ومما يدل على تصوفه أنه كان إذا شرع فى علوم الصوفية وشرح الأقوال أبكى الحاضرين ، ولم يزل على طريقة حميدة مرضية من أول عمره إلى آخره(٣) .

وتوفى الجوينى فى عام ٤٧٨هـ .

قصة طريفة فى حياة الجوينى

ذكر ابن خلكان فى تاريخه قال : أخبرنى بعض المشايخ أن والد الجوينى ـ رحمه الله ـ كان فى أول أمره يقوم بنسخ الكتب للآخرين بالأجرة ، فاجتمع له من كسب يده مبلغ من المال ، اشترى به جارية موصوفة بالخير والصلاح ، ولم يزل يطعمها من كسب يده حتى حملت بابنه إمام الحرمين .

(١) طبقات الشافعية الكبرى للسبكى ٢/ ٢٦٣ .

(٢) الجوينى إمام الحرمين ص ٢١١ .

(٣) وفيات الأعيان ١/ ٥١٥ .

وحين وضعت وليدها أوصاها أن لا تمكن أحدا من إرضاعه ، لأنه أراد ألا يخالط جوف ابنه شيء لا يعرف مصدره .

واتفق أنه دخل عليها يوما وهى فى حالة إعياء ، تتألم من مرض أصابها ، والصغير يبكى ، فأخذته امرأة من جيرانهم وألقمته ثديها ليكف عن البكاء ، فرضع الصغير قليلا ، ورأى الشيخ ذلك فهاله وشق عليه ، فأخذ الطفل ونكس رأسه ومسح على بطنه وأدخل إصبعه فى فيه ، فأخذ الطفل يقىء ما رضعه ،وكان الشيخ يقول : يسهل على أن يموت ولا يفسد طبعه بشرب لبن غير لبن أمه ، فيحكى عن أمام الحرمين بعد أن كبر أنه كان يلحقه فى بعض الأحيان فترة فى مجلس المناظرة فيقول : هذا من بقايا تلك الرضعة [1] .

صحبة الغزالى له

هذا هو الإمام الجوينى ـ رحمه الله ـ وقد عرفنا به لندرك أى شيخ كان أستاذ الغزالى الذى هاجر إليه من طوس وجلس إليه فى نيسابور ولزمه فترة طويلة نبه فيها شأنه وسطع نجمه وعلا قدره ، وظل تلميذا نجيبا له حتى فارق الجوينى الدنيا .

ومن المرجح أن تكون هجرة الغزالى إلى نيسابور بعد أن استقر المقام للجوينى بهابعد عودته من ترحاله فى البلاد . ذلك أنه كان فى نيسابور حتى سنة ٤٤٦هـ تقريبا ، ثم غادرها تحت وطأة التعصب الشديد بين الطوائف المختلفة إلى بغداد ، ثم ترك بغداد إلى الحجاز حيث أقام فى مكة أربع سنوات مجاورا ثم فى المدينة المنورة ، ثم عاد إلى نيسابور بعد عام ٤٥١هـ تقريبا . وفى ذلك الوقت أنشأ نظام الملك مدرسته فى نيسابور التى تولى إمام الحرمين التدريس فيها .

جاء الغزالى بعد ذلك التاريخ بقليل . ولزمه فترة طويلة وقد قدر بعض

(١) ابن خلكان ١/ ٥١٦ .

المؤرخين سن الغزالى حين قدومه إلى نيسابور بأنها كانت الثامنة والعشرين من حياته ، ولكن ذلك لا يتأتى ، لأن معناه أنه لم يصاحب إمام الحرمين إلا أياما قليلة . فإمام الحرمين توفى عام ٤٧٨هـ وكانت سن الغزالى إذ ذاك ثمانية وعشرين عاما .

وإذن فلابد أن يكون قد نزح إلى نيسابور قبل ذلك بعشر سنين على الأقل أى وهو فى سن الثامنة عشرة ، حتى يمكن فهم ما قاله الرواة من أن الغزالى صار من الأعيان فى حياة شيخه ، وأنه ألف بعض مصنفاته فى حياة شيخه ، وأنه ـ أى شيخه ـ أصبح يباهى به فى حلقته ، ويشير إليه بأصابع الإعجاب ، ويحمد الله على أن وهبه تلميذا فى مقدرة الغزالى وعلمه وتفوقه .

العلوم التى تلقاها على يديه

لقد تلقى الغزالى على يدى إمام الحرمين المذاهب على اختلاف أنواعها ، وتعلم الجدل وأساليبه والمنطق وأصوله والفلسفة ونظرياتها .

ويقال إن إمام الحرمين لما رأى تفوق تلميذه أصبح يعتمد عليه فى كثير من أعماله ، وأصبح يعهد إليه بما يعهد به الأستاذ إلى المعيد ـ فى عصرنا الحاضر ـ فهو يجيب على الأسئلة ويوضح بعض النقاط ، ويزيل الغموض ، ويقدم بعض التفصيلات لما أوجزه الشيخ فى بعض الدروس .

ولعله قد ظهرت له بعض التآليف فى ذلك الوقت ، فى حياة شيخه ومن ذلك كتاب « المنخول » الذى بزغ فيه نجمه حتى إن شيخه قال حين اطلع عليه فيما يرويه المقريزى فى كتابه « المقفى » : دفنتنى وأنا حى هلا صبرت حتى أموت لأن كتابك غطى على كتابى .. وقد انتقد المرحوم الدكتور فريد الرفاعى هذه الرواية وفندها .

ونضيف : إن الأستاذ عادة يفخر بتلميذه ، ويسره جدا تفوقه ، ذلك أن نجاحه نجاح له ، وتفوقه تفوق له ، فإن الناس حين يعجبون بشخص يثنون على من

علمه وثقفه وخرجه ، وكثيرا ما يقولون : عاش المربى .

إن الأستاذ كالوالد تماما لا يسره أن يكون من هو أفضل منه إلا ابنه ، والتلميذ ابن لأستاذه ، وإن كان هناك قلة يحقدون فهؤلاء ليسوا أسوياء ، والجوينى لا شك فى أنه كان أستاذا جديرا بالأستاذية ، ومن أصحاب المثل العليا ، ولذلك كان يباهى بتلاميذه ، ومما يذاع عنه أنه كان يقول كثيرا فى صدد المباهاة بمن تخرجوا على يديه : « الغزالى بحر معرفة ، والكيا أسد محدق ، والخوافى نار تحرق »

وحين كان يوازن بينهم يقول : « التحقيق للخوافى ، والجزئيات للغزالى والبيان للكيا الهراسى »

من هؤلاء ؟

هؤلاء كانوا أبرز تلاميذ الجوينى على كثرة التلاميذ ، والعبارة الأخيرة تشير إلى كثرة المناظرات التى يعقدها الجوينى بين تلاميذه تدريبا لهم واختبارا لمقدرتهم ، واستكشافا لمواهبهم ، وهى طريقة تربوية صحيحة تكون الشخصية وتعود الاعتماد على النفس والاستقلال بالرأى .

والخوافى : هو أبو المظفر أحمد بن محمد بن المظفر الخوافى الفقيه الشافعى ، يقول عنه ابن خلكان : إنه كان أنظر أهل زمانه ، يعنى أقدرهم على المناظرة والجدال .

أصله من خواف ، وهى ناحية من نواحى نيسابور كثيرة القرى تتلمذ على إمام الحرمين ، ولزمه وتخرج على يديه ، وصار من أوجه تلاميذه ، تولى بعد تخرجه القضاء بطوس ونواحيها .

ويقول ابن خلكان : كان مشهورا بين العلماء بحسن المناظرة وإفحام الخصوم ، وهذا هو ما تشير إليه عبارة الجوينى عنه « بأن التحقيق للخوافى » يقصد قوة الحجة التى تدفع الخصم .

وكان رفيقا للغزالى فى حلقات الجوينى ، وليس معنى ذلك أن المناظرة كانت تدور بينهما ، بل معنى عبارة الجوينى أن الخوافى إذا ناظر فى أى موضوع كانت الغلبة له ، لقد رزق الخوافى السعادة فى مناظراته كما رزق الغزالى السعادة فى تآليفه (١) .

وقد توفى الخوافى سنة ٥٠٠ هـ بطوس قبل وفاة الغزالى بخمس سنوات .

الكيا الهراسى

الكيا ـ بكسر الكاف وفتح الياء بعدها ألف ـ معناها فى اللغة العجمية الكبير القدر المقدم بين الناس . وأما الهراسى فهى نسبة إلى مكان .

وهوأبو الحسن على بن محمد بن على الطبرى الملقب عماد الدين ، الفقيه الشافعى . من أهل ، طبرستان ، وهى إقليم متسع ببلاد العجم يجاور خراسان ، والنسبة إليها طبرى .

خرج إلى نيسابور وتفقه على إمام الحرمين الجوينى ولزمه حتى برع ،وكان حسن الوجه جهورى الصوت فصيح العبارة حلو الكلام .

ثم خرج من نيسابور إلى بيهق . وهى قرى مجتمعة بنواحى نيسابور على عشرين فرسخا منها ، ودرس بها فترة ، ثم خرج إلى العراق ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد ، وظل يقوم بذلك حتى توفى سنة ٥٠٤ هـ أى قبل وفاة الغزالى بعام .

قال عنه ابن خلكان : كان من رءوس معيدى إمام الحرمين ، أى الذين يشغلون منصب المعيد ، وهو لقب علمى ـ فى الدرس ، وكان ثانى أبى حامد الغزالى ، بل آصل وأصلح وأطيب فى الصوت والنظر .

تولى القضاء ، وارتفع شأنه فى ظل الدولة السلجوقية .

---

(١) وفيات الأعيان ١/ ٤٨ .

بسم الله الرحمن الرحيم

* الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام علي رسوله محمد وآله وأصحابه ومن اهتدى بهداه ... أما بعد .

* فنستخير الله تعالي ونوالى نشاطنا فى نشر الثقافة الإسلامية .

* فتاريخنا الإسلامى حافل بصور مشرقة لكثير من الشخصيات الجليلة التى قدمت للأمة الإسلامية أعظم الأمثلة فى العلم والعمل والجهاد والاجتهاد والإصلاح والإرشاد .

* ويسعدنا أن نقدم لكم بعد أن انتهينا بحمد الله من تقديم كتابنا عن الخليفة العادل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب أن نقدم

الشخصية الرابعة من

سلسلة الشخصيات الإسلامية

أبو حامد الغزالى

حجة الإسلام ومجدد القرن الخامس الهجرى

نتعرف من خلالها علي : ملامح عصره ـ أضواء حول الخلفاء والحكام فى عصر الغزالي ـ المولد والنشأة ـ رحلاته العلمية ـ تصوف الجوينى وصحبة الغزالى له ـ العلوم التى تلقاها على يديه ـ الغزالى يتحدث عن تجربته الصوفية ـ الغزالى بين الأنصار والخصوم ـ الغزالى مجدد القرن الخامس ـ مؤلفاته ... الخ

أ . د . حمزة النشرتى



الثمن ١٥٠ قرشا

مطابع الأهرام بكورنيش النيل